الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⴰⴽⵍⵉ ⵎⵓⵃⴻⵏⴷ ⵓⵍⵃⴰⵊ - ⵜⵓⴱⵉⵔⴻⵜ -
Faculté des Lettres et des Langues

قسم اللغة والأدب العربي

التخصص: نقد حيث ومعاصر

الإنسانية في أدب الديستوبيا
رواية "عالم جديد شجاع" أنموذجا

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

إعداد الطالب:

طهراوي سعاد

إشراف الأستاذ:

أ.د. حيدوش أحمد

لجنة المناقشة:

1- د.علوات كمال	جامعة البويرة	رئيسا
2- أ.د. حيدوش أحمد	جامعة البويرة	مشرفا ومقررا
3- د.تومي سعيدة	جامعة البويرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:

2021-2020

الإهداء

في حضرة الذل المُشيّدِ بالخنوع ...ونحن نتسكع داخل مواجعنا والهزائم وابل ...

نحترف الذل صمتا ،نمتهن الصمت خوفا ،نمارس الخوف ضعف إيمان ...

قم أيها الإنسان نزفا وجرحا ....

فلا توجد ولادة من غير ألم ودم ...

وعلى امتداد الجرح وعمقه ينضج الإنسان

إلى إنسان آت ذات يوم ...

مقدمة:

استفاق القرن العشرون، خلافا عن القرون التي سبقته، على تراكم التحولات المتسارعة التي طرأت على العالم والإنسان، فأصبحت الإنسانية عرضة لأزمات متلاحقة، عابثة باستقرار العالم، ومهددة للوجود الإنساني.

ففي ضوء ما ألنا إليه من مآلات بائسة، لا تزال نماذجنا البشرية توقعنا في المزيد من الكوارث الحربية، والمصائب السياسية، والكمائن الاقتصادية لتضيق على الإنسان الأرض بما رحبت، ويمسي العالم مقلوبا، وإنه لمن وحي عذاباتنا التي عشناها ونعيشها، وتشكّلنا ولا تزال نتشكّل في أتونها، وُلدت ثمرة التأمل في أحوالنا البشرية منوهة ببؤس العالم المجني عليه.

لقد ولدت الرواية الديستوبية من تحت رماد الحربين العالميتين الأولى والثانية وبُعثت من قمة التقدم الذي خلع عن الإنسان قيمته الإنسانية وصيّره إلى قيمة آلية ومادية، وكذلك مع تنامي الأنظمة الدكتاتورية التي صادرت الحريات، وكتمت أنفاس الناس، ومع تغييب القيم الروحية وإحلال المجتمعات الاستهلاكية والمادية محلها،كل ذلك ألقى بظلاله على الأدب فجاءت الرواية الديستوبية برمزية مبدعة وبرؤية استشرافية، منتقدة أهوال العالم وأحوال سكانه.

ولعل أكثر ما يحدوني لخوض غمار هذا البحث، توقي للتأمل والنظر في المنظومات التي تؤثث المنتوج الأدبي الإنساني باعتباره مسايرا لتوترات النفس البشرية ومؤطرا لها في الآن ذاته لاسيما تلك النصوص ذات البعد الفلسفي والفكري، والتي ما فتئت تعمق رؤانا بعد كل قراءة.

وقد أفدت في بحثي هذا من دراسات عدة أثْرت معارفي ومكنتني من مقاربة موضوع الديستوبيا وفق تأصيل منهجي، أرجو أن أحصله في لاحق مطالعاتي وبحوثي ومن تلك الدراسات:

الحياة السائلة والشر السائل لزيغمونت باومان، والعلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة لعبد الوهاب المسيري، واللامنتمي لكولن ولسون وكذا مؤلفات روجيه غارودي، وغيرها.

انطلاقا من هذه المعطيات فإن إشكالية البحث تتساءل عن كون الذين أعلنوا عن أفول القيم واختفاء الإله، وموت الإنسان، هل استطاعوا تأسيس عالم جديد ومغاير عن الموجود ؟ ألا تعد أعمال هذا النوع الأدبي ـ أدب الديستوبيا ـ فضحا للعالم المسلوخ من قيمه، والإنسان الممسوخ عن إنسانيته؟ هل هو أدب يتنبأ بعالم مفكك تتعاظم فيه التراجيديا بفيالق الموت والألم واليأس فتصعد الإنسانية نحو السقوط، وتسقط القيم والمثل العليا صعودا نحو الوهم واللاوجود؟ هل يمكن اعتبار الرواية الديستوبية شكلا من أشكال التعرف على المصير الإنساني؟.

للإجابة عن هذه التساؤلات، قسم هذا البحث إلى فصلين، يسبقهما مدخل موطئ ورد فيه ضبط المصطلح أو مفهوم أدب الديستوبيا، وأسباب نشأته حيث ساهم التطور العلمي وتوسيع المعرفة البشرية في القرن العشرين في الشعور بأننا سننجح في إقامة عالم مثالي، إلا أن هذه المحاولات أسفرت عن بشاعة العالم وأفسحت المجال أمام الرؤى المظلمة والديستوبية للمستقبل القمعي، خاصة بعد اندلاع حربين عالميتين فتاكتين، فجاء هذا اللون الأدبي متكهنا بالمستقبل المخيف مصورا عوالمه الفاسدة حيث يكمن الشر، ثم تلاه الفصل الأول يتحدث عن عالم جُرد من الأخلاق والقيم، واحتفى بالشر واتخذه مصدر قوة وفلسفة بقاء، فتناولت فيه فكرة موت الإله التي أعلن عنها فريدريك نيتشة، وأعلن من بعدها ميلاد الإنسان الجديد الذي يحل محل الإله، والذي يفاجئنا أنه كان شيطانا طوال الوقت، إنه إنسان العصر الحديث الذي اعتقد أن العلم يقدم له رفاهية الحياة، فسقط في فخ العدمية التشاؤمية، وانغمس في الاستهلاك وأصبح يدا طيّعة في يد الشركات والأنظمة التي تختزل انسانيته في قدرته الشرائية وما يمكن استهلاكه، هذا الإنسان الذي

لا يقدر سوى متعته بتجاهله للأسئلة الكبرى، وهكذا انطلقت الثورة الجنسية لتفكيك المفاهيم حول الزواج والأسرة والإنجاب وبهذا يختفي العار والعقاب تحت سطوة التحرر الجنسي، ثم جاءت التقنية لتدق المسمار الأخير في نعش الإنسانية موهمة إياه بتوفير كل ما أمكن توفيره عدا انسانيته.

ويأتي الفصل الثاني مخصصا لدراسة تحليلية لمشهديات ديستوبية في واحدة من روائع أعظم الكتاب الإنجليز، وواحد من أهم الأصوات الأدبية والفلسفية في القرن العشرين، إنه الروائي **ألدوس هكسلي** عن روايته **عالم جديد شجاع** التي ألفها عام 1932 م، وتدور أحداث الرواية حول مدينة للعلماء فقط، حيث الآلات والعقاقير هوما يميزها، فلا مكان للحب والأخلاق والارتباط، إذ يتخلى هذا العالم عن فكرة الزواج ويستبدلها بتكوين الأجنة بطرق علمية بدلا من تكوينها في الأرحام.

تطرح هذه الرواية قضية فلسفية مهمة تتمثل في الخيار بين الحرية والمتعة، كما تعكس هيمنة العلم على الإنسان إلى الحد الذي يفقد فيه حريته وإنسانيته.

وبغية الوقوف عند معالجة دقيقة لتلك التساؤلات، اعتمدت في إنجاز هذا العمل على الوصف والتحليل، وفي الأخير ختم البحث بخاتمة عرضت فيها جملة من الاستنتاجات التي أفضى إليها هذا البحث.

مـــــــدخـــــــــل :

أدب الديستوبيا: المصطلح والمفهوم والنشأة

مدخل :

أدب الديستوبيا: المصطلح والمفهوم والنشأة

يعتبر مصطلح الديستوبيا (dystopia)المصطلح النقيض لمصطلح يوتوبيا(Utopia)، ولقد كان لهذا الأخير الأسبقية في الظهور، وأول من صاغ هذا المصطلح" توماس مور" إذ أطلق مصطلح يوتوبيا على جزيرة مثالية تحقق فيها أمل الإنسان بالعيش في مجتمع مثالي، حيث تختفي شرور عالم الواقع وتتحقق أماني الإنسانية بالفردوس الأرضي، أين يوجد العدل والمساواة، وكان ذلك في قالب روائي إبداعي ف:<< فكرة العالم المثالي أو اليوتوبيا، هي فكرة راودت خيال الإنسان من قديم الزمان، وتناولها الفلاسفة والمفكرون وقدموا لها صورا مختلفة اتخذت الطابع الديني أحيانا، والطابع الفلسفي أحيانا أخرى (...) ومن أمثلة ذلك جمهورية أفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو، وأراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ومدينة الشمس لكامبانيلا>>[1]، إذن تعرف اليوتوبيا بأنها ضرب من التأليف الأدبي أو الفلسفي يتخيل فيه كاتبه الحياة في مجتمع مثالي لا وجود له، وهذا النوع من التأليف يمتد وصولا إلى جمهورية أفلاطون حيث يقدم عالما سياسيا يوتوبيا فاضلا ومثاليا، ونجد في العربية الفارابي ومدينته الفاضلة تنتمي إلى هذا النوع من التأليف ف :<<أما ما يميز يوتوبيا" توماس مور" عن تلك الأعمال السابقة فهو الشكل الأدبي الروائي الذي قدم به "مور" عالمه المثالي(...) قدم صورة أدبية لجزيرة مثالية فأرسى بذلك قواعد الرواية اليوتوبية >>[2]، المجسدة لحياة مثالية آمنة وزاخرة بأسباب الراحة والسعادة لجميع بني البشر، ولأن الحياة الإنسانية ليست ساكنة وثابتة، وإنما هي أحداث تعتمد الفعل في حركيتها، فإن زمن ما بعد اليوتوبيا جاء بأحداث

[1] - توماس مور، يوتوبيا، تر:إنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1974م، ص 13.

[2] - المرجع نفسه ،ص 13.

مختلفة، ووضع إنساني لم يشهده الإنسان من قبل، ألقى بظلاله على الفن والأدب فكان لزاما عليهما أن يصورا أحداث هذا الواقع الجديد وملامحه التي أصبح فيها الحلم بمجتمع يوتوبي ضربا من العبث وهكذا ولد المصطلح النقيض" **ديستوبيا**"، ويعرف أيضا ب:"اليوتوبيا المضادة والتي تهدف في خططها الروائية إلى نقد التبعات السلبية الكامنة وراء الإنصياع لصيغ بعينها من الأفكار المثالية، وعلى كل حال تميل الروايات الخيالية عن المدنية الفاسدة إلى تضمين بعد نقدي لاذع يرمي إلى التحذير من العواقب المحتملة لتوجهات معينة في عالم الواقع "[1] وتعني كلمة ديستوبيا في أصلها اليوناني المكان الفاسد والخبيث <<وكلمة ديستوبيا استخدمت لأول مرة في منتصف القرن الثامن عشر، واستخدمها الفيلسوف الإنجليزي جون استوارت ميل في خطاب أمام البرلمان في عام 1868م، ولم يشع الشكل الأدبي واستخدام الكلمة لوصفه حتى وقت لاحق في القرن العشرين >>[2]، والديستوبيا كشفت عن ملامح العالم الرمادي الكئيب للقرن العشرين حيث الدمار والفوضى والقلق والتشظي الذي خلفته أوزار الحرب العالمية، والتي ألقت بثقلها على كل مناحي الحضارة، مما خلق مادة جديدة لنوع أدبي، جديد إنه أدب الديستوبيا، أو أدب المدينة الفاسدة الذي يعتمد الخيال العلمي في بناء حبكته الدرامية التي :<<تتميز بالخيال التأملي، والذي مازال يُحدث الحماس والرعب في نفوس القراء (...) وفكرة الديستوبيا هو المجتمع الفاسد غير الفاضل>>[3]، فهي الوجه الآخر لليوتوبيا، إذ تتميز بالتجرد من الإنسانية وتجلي مظاهر استبداد الأنظمة بحيث

[1] - ينظر : ديفيد سيد، الخيال العلمي تر: نيفين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، جمهورية مصر العربية، ط1،2016م،ص 75.

[2] -لا يمان تارو سارجنت، اليوتوبية (مقدمة قصيرة جدا)، تر :ضياء وراد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربية، ط1،2016م، ص 33.

[3] - الدوس هكسلي، عالم جديد شجاع، تر: مروة سامي، عالم الأدب، بيروت، لبنان،ط1م،2016م، الصفحة الأخيرة.

يسود الخوف والظلم والقمع والقتل والخداع، فالرواية الديستوبية هي صرخة المقموعين ووجع المرعوبين.

يعتبر القرن العشرون العصر الذهبي لهذا اللون الأدبي الذي من خلاله قد نفهم أطروحة الشر التي أصبحت فلسفة وجود وبقاء على هذا الكوكب، يقول "جورج أورويل":<< إننا نغوص في الوحل، فعندما أتحدث إلى شخص ما أو أقرأ كتابات أيٍّ من أصحاب الرأي القوي أشعر أن الأمانة الفكرية والحكم الرشيد قد اختفيا من وجه الأرض، إن كل رأي هو رأي سجالي كما في المحاكم، حيث يدافع كلٌّ عن رأيه، ويقمع عن قصد رأي خصمه بفقدان الإحساس بالمعاناة (...)الكل غير أمين والكل لا يشعر بأية رحمة تجاه من هم خارج النطاق المباشر لمصالحه، والأدهى هو إمكانية فتح الرحمة وغلقها مثل الصنبور وفق المصلحة السياسية>>[1].

تعد رواية 1984 "لجورج أورويل" درة أدب الديستوبيا في القرن العشرين، فهي بطابعها السياسي تجاوزت الخيال العلمي والأدبي لتتحول إلى واقع في القرن الواحد والعشرين، كما يجدر التنويه أن هذه الرواية ظلت ممنوعة في كثير من دول العالم، تتحدث هذه الرواية عن دكتاتورية النظام الحاكم، حيث لا ولاء إلا للحزب الذي يتحكم في حياة الناس رافعا شعار الحرب هي السلم- الحرية هي العبودية- الجهل هو القوة، وبهذا يكون مفهوم الحرية قد جرى تدميره، فالولاء يعني انعدام التفكير، بل يعني انعدام الحاجة الى التفكير، الولاء هو عدم التفكير.

الرواية قدمت صورة ديستوبية مخيفة عن "المجتمع الذي يحكمه الحزب الواحد بالحديد

[1] - زيجمونت بومان وليونيداس دونسكيس، الشر السائل، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، ط1، 2018م، ص 52.

والنار التي تتولاهما شرطة الفكر، والتي تعمل على القمع والقهر والتعذيب وتزوير التاريخ، فيصبح كل فرد في هذا المجتمع رقيبا على الفرد الآخر، والحزب رقيب على الجميع، وداخل آلة القمع هذه تظهر شخصيات بوعيها الإنساني تحاول أن تتمرد على هذا الواقع البائس، وترى أن الحرية أسمى قيم الإنسان، وهذا ما نلمسه في شخصية ونستون الشخصية البطلة في هذا العمل"[1]، وإذا كانت رواية 1984 تمثل الديستوبيا السياسية وسيطرة الحزب الواحد، فإن رواية فهرنهايت 451"لراي براد بوري" هي درجة الحرارة التي يحترق فيها الكتاب حيث يقول "مونتاغ" بطل الرواية عندما تسأله جارته "كلاريس" عن عمله : <<إنه عمل ممتاز، في يوم الاثنين نحرق كتب ميلاي، في يوم الأربعاء كتب وتمان، في يوم الجمعة كتب فوكنر، نحرقها حتى تصبح رمادا، ثم نحرق الرماد، وهذا شعارنا الرسمي>>[2]، فمونتاغ رجل إطفاء وظيفته حرق الكتب التي يعتبرها الحكام مصدر كل الشرور، لكن بطل الرواية يتأثر بجارته التي سألته إن كان يقرأ الكتب قبل إحراقها، وأن مهمة رجل الإطفاء في السابق كانت إخماد الحرائق لا إشعالها، يلتحق مونتاغ بجماعة الهاربين في الريف حيث يحفظ كل واحد منهم عددا من الكتب في انتظار أن يصبح المجتمع جاهزا لاكتشافها وتلقيها.

وهذا النوع من الأدب يتنوع في طرح قضاياه السياسية والفكرية والبيئية والعلمية بحيث تتفق طروحات هذه القضايا في توظيف الجانب العلمي والتكنولوجي (الخيال العلمي)،

ولذا تعد الديستوبيا فن التكهن والتنبؤ بأحداث المستقبل، ولقد برع" يفغيني زاميا تين" في روايته **نحن** في تصوير الديستوبيا العلمية والتكنولوجية، حيث يتحول البشر إلى قطيع من المسوخ

[1]- ينظر : جورج أورويل، رواية 1984،تر: الحارث النبهان، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط1، 2014م ص ص 06-30-58.

[2] - راي براد بوري، فهرنهايت 451،تر: سعيد العظم، دار الساقي، بيروت، لبنان،ط1،2014 م ص15.

مسلوبي الإرادة والحرية فهي:<< رواية هجائية عن تحول الإنسان إلى آلة يتحول الناس في جزيرة زاميا تين إلى أرقام وأحرف، والمدينة مقسمة إلى شوارع بأرقام، حتى الإنفعالات والعواطف(...) ففي كل صباح وبدقة سداسية العجلات، وفي ساعة واحدة ودقيقة واحدة، ننهض نحن الملايين كرجل واحد، وفي ساعة واحدة نبدأ نحن الملايين عملنا كرجل واحد، لقد انصهرنا في جسم واحد، ذي الملايين الأيدي>>[1]، ويحدث كل هذا بأمر من الدولة ورقابتها.

وفكرة مكننة الإنسان، وتحوله إلى شيء من أشياء هذا العالم وواحد من آلاته، طرحها أيضا "الدوس هكسلي "في روايته عالم جديد شجاع، حيث يتم إنتاج البشر علميا وصناعة عالم مختلف يحكمه العلم وحده.

ومن خلال هذا العرض الموجز لأهم الروايات التي تناولت الديستوبيا، نرى أنها جميعا وإن اختلفت في القضايا المطروحة فهي تشترك جميعا في تصوير المعاناة والخوف والرعب، حتى عُد ذلك أحد أهم العوامل التي أوجدت العالم الديستوبي.

[1]- ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، دار ممدوح عدوان للنشر و التوزيع، دمشق،ط2، 2012م،ص 193.

الفصـــل الأول

الأسس الفلسفية والمرجعيات الفكرية للديستوبيا

1. من موت الإله إلى اختفاء الإنسان
2. إنسان السيولة وثقافة المتعة في زمن اللحظة
3. العبيثية والعدمية والاغتراب
4. صراع الغابة قانون للحياة

عندما هبط الإنسان إلى هذا العالم الأرضي هبط أعزلا إلا من عقله، لذا حُق له بامتياز أن يكون المخلوق الوحيد الموصوف بالعقل والحكمة، لقد استطاع أن يترفع عن الحياة الغريزية المحضة، ويتجاوز الطبيعة إلى ما بعدها، إلى المعرفة والثقافة والعلوم والفلسفة والفنون.

تلك التي تمنحه هدف وجوده، معنى بقائه، حكمة فنائه إنه لغز الإنسانية الممتد منذ تاريخ مديد، منذ لحظة الخلق :<<اني جاعل في الأرض خليفة>>،[1] إلى لحظة الهبوط <<اهبطا منها>>[2]، وإنه لمن المثير للإعجاب ولشدة الإحساس بالاعتزاز ذلك التاريخ الطويل من الإبداع والتفكير، والنظريات والفلسفات التي اتخذت من الظاهرة الإنسانية وعالمها محط التفكر والتدبر والتأمل، فداخل هياكل هذه المعارف والفنون تم بناء أساسات قوية، وإقامة صرح آمن تلوذه الإنسانية، إذ:<< بإمكاننا أن نجد في الأدب والشعر والموسيقى لغة الروح البشرية، في الرسم والنحت ذات الكم من الرسائل بشأن كياناتنا العميقة هكذا تضيء جميع الفنون والعلوم كل من زاويتها الخاصة الظاهرة البشرية >>[3]، فعلى مر العصور والقرون أولت النظريات والفروض والآداب اهتماما شديدا بالإنسان، لمعرفة حقيقته وجوهر عالمه، إذ ظل الإنسان لغز العالم الأول ف: <<الإنسان هذا المزيج الفعال من قبضة الطين ونفخة الروح مليء بكل التناقضات، بالخير كما الشر وبالسوء كما الصلاح بالعورات المتوارية وبالأطراف التي تبني وتشيد الإنسان(...)هذا المزيج من الأضداد والتنوعات، هذا البحر من الأسرار المتوارية، والأفعال المعلنة >>[4]، هذه

1- سورة البقرة، الآية 29

2- سورة طه، الآية 122

3- إدغار موران، النهج إنسانية البشرية (الهوية البشرية)،تر: هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات،ط1، 2009م، ص 22.

4 - أحمد خيري العمري، الفردوس المستعار والفردوس المستعاد، دار الفكر، دمشق،ط3، 2011م، ص 104.

اللوحة الإنسانية العظمى التي ظل الأدب يرسم معالمها يعري عن ملامحها، ليشكل جزءا من وعينا، ليغوص بعمق في أعماق لا وعينا، إنه ملازم للإنسان قديم قدم وجوده، منذ ان اكتشف هذا الأخير اختلافه عن باقي الكائنات، إنه يتخيل، يفكر، ينظم وينثر، يعبر عن حاجاته وأهدافه، عن قيمة حياته في هذا العالم الفسيح الذي ظل سيده ونقطة المركز فيه، إنه نقطة البدء والمعاد، ف:<<لننظرإلى تاريخ الأدب الغربي على سبيل المثال منذ نهاية العصور الوسطى، سنجد في حكايات كانتربري لتشوسر، ثم مسرحيات شكسبير، وكورنيل وراسين في عصر النهضة شخصيات ذات أبعاد إنسانية وبطولية مركبة تشغل مركز الكون، قد ترتكب أفعالا مأساوية لكنها تظل ذات مرجعية إنسانية تدور في إطار منظومات قيمية ومعرفية، ويستمر وجود هذا الإنسان في أدب القرن الثامن عشر والتاسع عشر مع ورد زورث- فيكتور هوجو -ديكنز -دوستويفسكي- تولستوي، إلى أن ندخل القرن العشرين >>[1]، هنا بين ركام الأحداث والتفاصيل، يواجهنا السؤال ما الذي حدث للإنسان ؟ وماذا أصاب العالم في القرن العشرين ؟

في القرن العشرين عاش العالم أكبر إنجازاته الدرامية، مما جعل الكرة الأرضية برمتها تتأرجح بين كفي التوتر والانفجار، إذ اشتعلت حربان عالميتان مدمرتان جعلتا الإنسان ومعه الكوكب مسكونين بالرعب والخوف:<< لقد ولد القرن العشرون متأخرا بضع سنوات في حريق عام 1914(...) أيقظ الرعب المتوحش لدى هؤلاء الذين كانت لديهم آمال، ولكن الآمال لم يكن لها مكان، لم يعد هناك إلا الدمار وصروح الموتى، ووعي عام بانهيار كل القيم >>[2]، وأمام هذا التعفن الذي أصاب إنسانية الإنسان التي أضحت رميما تحت الخراب<<اكتملت الظروف بحيث

[1]- عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الأول، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002م، ص44.

[2]- روجيه غارودي، كيف ضعنا القرن 20، تر: ليلى حافظ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2000م، ص110.

تصبح الحرب العالمية الثانية، استكمالا للأولى نتيجة للعمى الذي أصاب المنتصرين، والزهو الذي حل عليهم >>[1]، فبدأت تتكشف معالم عالم جديد <<إن ملامح هذا العالم كاذبة، لأنها تمثل وجها يغطي على القبور والأعماق الملتهبة ولا شيء حقيقي إلا كل ما هو مرعب>>[2]، فشيء من النبش في ذاكرة تاريخ عالمنا الكسير ستطالعنا صورة معالم كوكب مختلف، وجه عالم جديد شكلت ملامحه الحروب، إنسان خَطِر صاغه الخَطَر،<<إن هذا العالم المجرد من القيم، هو عالم بالغين في أساسه، في حين أن عالم الطفل أنقى(...) هذا العالم الجديد، إنما يبعث على الرعب، إن هذا الفرق بين عالم الطفل وعالم البالغ، هو في الوقت نفسه أحد الفروق الرئيسية بين عالم القرن 19 وعالم القرن العشرين وقد لاح أن الثورات الفكرية التي قام بها أساطين العصر الفيكتوري إنما كانت نذيرا بتغيير لا نهائي في الحياة الإنسانية، ونبوءة بأن الإنسان سوف يتقدم صاعدا على أشلاء موتاه إلى الأعالي >>[3]، فباختصار عندما تتبدل ظروف الحياة وتتغير فإن أشكال المعرفة والثقافة تبدو تقليدية، إذ تتوقف عن مد الإنسان بالحد المرجو من حاجاته ومتطلباته لذا لابد أن تساير معه هذا التغير الحاصل لتُظهر حاجات جديدة وتكيفات ثقافية جديدة يزاول الإنسان عيشه من خلالها.

ففي ظل عالم جديد بتحولاته المتسارعة على كل الصُّعد الجغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية، لامس ذلك بل اخترق وانتهك كل ماكان يبدو في الفكر الإنساني سابقا أنه مقدس وأوله الإنسان لقد:<< عرف الفكر المعاصر ازدهارا ملحوظا للتيارات الفلسفية المنتقدة للنزعة الإنسانية، وربما لم يشهد له مثيل من قبل في تاريخ الفكر والفلسفة، لقد تكاثرت تلك التيارات في أشكال

[1]- روجيه غارودي، كيف صنعنا القرن 20، تر: ليلى حافظ، ص 111.

[2]- كولن ولسون، اللامنتمي، تر: على مولا، دار الآداب، بيروت 5، 2004 م، ص 128.

[3]- المرجع نفسه، ص 51.

وألوان متعددة وداخل ميادين معرفية وثقافية متنوعة، وكانت القاسم المشترك بينها جميعا هو هيمنة روح التقويض والتفكيك تفكيك العقل والعقلانية، والمبادئ والقيم، والمعنى والدلالات، والأهداف والغايات والتاريخ، وفي عبارة جامعة تفكيك الإنسان وعالمه الثقافي >>[1]،وأمام هذا الوضع الفكري الجديد، علت أصوات منكرة لقداسة الإنسان مؤسسة لدعائم فكر ظلامي متشائم، سلخ العالم والإنسان من قيمه ومعانيه بل سلخه من ربه، وألبس هذا الرب لبوس الشر، وجعله مصدر كل الفجائع، يقول فيلسوف لاهوت الشر فريدريك نيتشه:<<إن مشكل أصل الشر قد شغلني وأنا في الثالثة عشر صبيا، وفي سن حيث يكون القلب نصفا للرب ونصفا لألعاب الطفولة، نذرت له طفلا لعبتي الأدبية الأولى، تمريني الأول في الكتابة الفلسفية، أما عن حل المشكل، الذي ارتأيته عندئذ فقد حفظت هيبة الرب كما يجب، وجعلته للشر بمثابة الأب >>[2]يبدو أن مكونات الخطاب الفلسفي عن الإنسان ومصيره، وإنسانيته وحقيقة وجوده ككل، قد أخذت منحى آخر، منحى إزاحة الإنسان من سدة مركزيته، إذ حل محل كل ذلك العلم وانجازاته التي تتعاظم كل يوم، ومن ثم يمكن القول :<< إن شهادة وفاة الفلسفة التي كانت تدعو إلى البحث عن معنى وأهداف فكر وفعل الإنسان وقَّع عليها أوجست كونت>>[3].

إن هذه الانعطافة الكبرى في مسار الفكر الإنساني ترتب عليها انحدار عظيم في ثقافات ومعارف الإنسان، بل بكل أعمال الإبداع والخلق في الثقافة الإنسانية عبر تاريخه الإنساني فمثلا:<< قام السرياليون بتدشين مبولة عامة في قلب باريس وقام ما لفيتش في الطرف الأقصى

[1] - عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1992 ص15.

[2] - فريديريك نتشه، في جينيا لوجيا الأخلاق، تر: فتحي المسكين، منشورات دار سيناتور، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، 2010م، ص 34.

[3] - روجيه غارودي، كيف صنعنا القرن 20، تر: ليلى حافظ، ص 105.

الثاني من أوروبا بعرض لوحة "مربع أبيض على أرضية بيضاء" لكي يرمز إلى انتحار الحضارة والفن (...) وفي عام 1917 أرسل الرسام الفرنسي مارسيل دوشامب إلى جمعية الفنانين المستقلين مغسلة في الحقيقة مبولة كجواب على لا معقولية العالم، فكل شيء لا معنى له، وفي المقدمة الفن، وكان هذا الموقف أساس الحركة الدادائية عام 1919، التي تبرز خواء وبطلان المجتمع>>[1]،فلطالما كان الفن الطريق المختصرة التي تصل بين الإنسان والإنسان، كما كان يقّدم للإنسان صورته عن نفسه وعن العالم، إذ به أي الإنسان في ظل هذا الفن الجديد يُمسي غائبا، و:<<تزداد الأمور تفككا (...) لكن التفكيك الحقيقي نجده في أعمال جووا تكين هذا الفنان الذي يستخدم جثثا حقيقية في صوره الفوتوغرافية وقد اعترف هذا الفنان أنه يحب أن يعاشر موضوعاته - أي الجثث -التي يصورها جنسيا>>[2]، لقد أصبح الفن يستلهم وجوده من التشيؤ والتفكك والخواء الروحي والفكري والثقافي إذ أصبحت موضوعاته تمجد اللامعنى، وتحتفي بظاهرة انتشار المسوخ، وتصور عوالم ملآى بالخراب، أصبحنا:<< نعيش في زمن الروايات الكئيبة التي ترسم الكوابيس المفزعة، وتستشرف كوارث المستقبل >>[3]، حيث يتسرب الفراغ والعدم إلى علاقات البشر، حيث ينفرط عِقد الإنسانية وتتناثر حباته في عالم بلا إنسانية مسود بالشر، موسوم بالخراب، ولعل هذا المشهد الديستوبي الفظيع، قد أتقن ت- س إليوت تصويره في :<<الأرض الخراب ملحمة القرن العشرين في رأي البعض، حيث يختفي الأبطال تماما، ويختفي الإنسان الإنسان، ويظهر بدلا من ذلك الرجال الجُوف الذين يعيشون في أرض مجدبة ويتحركون بلا اتجاه، مثل الذرات المتناثرة في عزلة قاتلة، ويكتب كافكا قصصه العديدة حيث يخضع الإنسان تماما إلى حتميات لا يعرف كنهها،

[1]- روجيه غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، تر: مروان حموي، دار الكتاب، دمشق، ط1 ،م1998، ص 66 . 68 .

[2]- عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مجلد1، ص 47

[3]- زيغمونت باومان وليونيداس دونسكييس، الشر السائل، تر : حجاج أبو جبر، ص 31

ثم يأتي مسرح العبث حيث تجلس الشخصيات في إحدى المسرحيات في صندوق قمامة في انتظار جودو الذي لا يأتي، ثم يكتب أنطوان صاحب مسرح القسوة قصيدة عبارة عن أصوات خالصة بلا معنى >>[1]، كل هذه الأعمال، وغيرها لا تستند إلى مرجعية، ولا تقدس شيئا، بل أزاحت الإنسان عن إنسانيته وأرخت لتفكيكه، وأسست لتشيئيه كما فجرت مكامن الشر فيه، واحتفت به، فكيف أصبح للشر دعاة من الفلاسفة والمفكرين والأدباء!؟ <<إن للشر السائل قدرة رهيبة على ارتداء أقنعة فعالة، وعلى حشد الهواجس والرغبات الإنسانية في خدمته تحت دعاوى زائفة، ولكنها دعاوى يصعب للغاية دحضها وإثبات زيفها، وما أكثر المتطوعين لخدمته (...) فالشر في الوجدان الإنساني هو عكس الخير وهو جزء أساسي من الخريطة الإدراكية التي ترسم العالم في ثنائيات صلبة متعارضة، مثل النور والظلام، والجمال والقبح، والحق والباطل، والإنسانية والبربرية، وكانت هذه الثنائيات تستمد تماسكها من مركز صلب إلهي أو بشري يحدد معالمها وحدودها، مع اختفاء المراكز الصلبة تحول الشر من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة>>[2]، وأصبح القبض عليه صعبا إذ اتخذ صورة المرغوب والمطلوب وتمكّن من مسرح الحياة والكون معا، فلم يعد شيطانا رجيما، بل أصبح احدى القوى الناعمة التي توظف الإغواء والإغراء بدل العنف والإكراه، وأصبح الإنسان أسيرا للواقع وإكراهاته التي يمليها عليه الحال الاقتصادي والأنموذج الاستهلاكي، هذا هوالشر السائل الذي لم يعد مُمَثلا في الاعتداءات المباشرة على الإنسان، وإنما أضحى اعتداء بأقنعة لذيذة ومغرية، وهكذا تتحلل الذات الإنسانية التي كانت تؤثر على العالم بمثلها وقيمها وتصبح أسيرة الشر الناعم الذي يفرض رؤاه وتوجهاته من غير اعتداء.

[1] - عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة، مجلد1، ص 45

[2] - زيغمونت باومان و ليونيداس دونسكيس، الشر السائل، تر : حجاج أبو جبر، ص 7 . 20

1- من موت الإله إلى اختفاء الإنسان

طرح فريدريك نيتشه أول مرة فكرة موت الإله في كتابه هكذا تكلم زرادشت ف "عندما نزل زرادشت من أعلى الجبل باتجاه السفح، في طريقه لما بلغ الغاب التقى بقديس، فسأله حينئذ زرادشت عما يفعله قديس في الغابة، رد القديس بأنه ينظم الأناشيد ويغنيها، وأنه يضحك ويبكي، ويدمدم، فهكذا يسبح للإله ثم افترق الرجلان، ولكن حالما وجد زرادشت نفسه وحيدا حدث قلبه بهذا الكلام : أيعقل هذا؟، إن هذا القديس العجوز لم يسمع هنا في الغابة بعد، أن الله قد مات!"[1]، إن عبارة موت الإله، هي الأكثر ذيوعا وترديدا في فلسفة نيتشه، بل هي الفكرة الأساس لفلسفته النيتشوية حيث يظهر الوحش الكامن الرابض في أعماق البشر، حيث يكشر العالم عن أنياب شروره، ليمارس وضاعته في العلن، فنمسي في ليل العالم الذي أضحى بلا إله نتحسس بأيادينا مآسي الإنسانية التي ضلت في طريق التيه، فقبل مئة سنة، وعندما أعلن نيتشة موت الإله:<<كان هذا الإعلان بمثابة كشف منذ ذلك الحين عن وحدة الإنسان ،لأن القول بموت الإله يعدل القول بأن الإنسان وحيد في هذا العالم >>[2]، بلاهوية ميتافيزيقية ولا مسلمات كان قد أسلم لها وبها في معرفة من هو كإنسان ؟ كمخلوق ؟ وعلاقته بخالقه ؟

لعل هذه الأسئلة المقلقة النابعة من وجع الإنسان التائه والوحيد، أحسن الكاتب "كيركغارد" طرحها في روايته "مراجعة "حيث يقول :<< يغرس الواحد منا أصبعه في التربة فيعرف الأرض التي ينتمي إليها من الرائحة التي يشمها وأغرس أنا إصبعي في الوجود فينم عبيره عن اللاشيء،

[1] - فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تر: علي مصباح، منشورات الجمل، بغداد، ط1، 2007 م ص 39.

[2] - روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، تر : جورج طرا بيشي، دار الطليعة، بيروت،ط1، نوفمبر 1979م، ص 5.

فأين أنا ؟ومن أنا ؟ وكيف جئت هنا؟ وما هذا الشيء المسمى بالعالم؟ وكيف وصلت إليه ؟ (...) وكأنما اشتُريت من خاطف ملعون، أو من تاجر أرواح>>[1]يبدو أن هذا العالم الذي يتساءل عنه بطل رواية "مراجعة" هو العالم الأرضي الذي يرفض بشدة كل ما هو سماوي، إنه عالم نيتشوي مادي يلغي الجانب الميتافيزيقي للعالم والإنسان، بل ينظر إليه على أنه وهم وخرافة ف:<<الفكر الإنساني منح الإنسان مركزيته في الكون، ولكنه حين ألغى الإله، أو همشه أي حين ألغى ما وراء الطبيعة فإنه لم يبق سوى السقف المادي (...)الذي يلغي مركزية الإنسان، بل يمكن القول، إن نموذج التمركز حول الإنسان هووهم من أوهام عصر النهضة، الذي كان يطمح إلى أن يتحرر الإنسان تحررا تاما من أي إيمان ديني وذلك بإنكار وجود الإله تماما>>[2]، هذا التحرر الذي يقوده بخطى ثابتة نحو الفكر التفكيكي والعدمي، ليجد صياغة جديدة للعالم والإنسان، إنها المادة التي تحرك كل شيء فما المقصود بالمادية ؟ <<المادية تؤكد أن حوادث العالم هي الأوجه المختلفة للمادة المتحركة، باعتبار أن المادة هي ما هو موجود خارج روحي، وخارج كل روح والتي لا تحتاج لأية روح لكي توجد>>[3]، إنها:<<ثورة على فكرة الميتافيزيقا والمركز، لذا فهي دعوة لإلغاء الفلسفة بل –وفي نهاية الأمر –إلغاء مقولة الإنسان نفسها، ونيتشه هوبلا منازع رائد الفلسفة المادية واللاعقلانية السائلة الجديدة، ولقد لخص رؤيته في عبارته الشهيرة" لقد مات الإله "، ويمكننا أن نتجاوز المضمون الديني والإلحادي المباشر لهذه العبارة، لنحدد مضمونها ومن ثم تضميناتها المعرفية التي لا تشمل الإله وحسب، بل تشمل الإنسان والكون ويلقي الفيلسوف الألماني هايدجر

[1]- كولن ولسون،، ما بعد اللامنتمي، تر : يوسف شرورو، منشورات دار الآداب، بيروت، ط5، 1981 م، ص22.

[2]- عبد الوهاب المسيري، رحابة الإنسانية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2012 م،ص 37.

[3] - روجيه غارودي، النظرية المادية في المعرفة، تر: ابراهيم قريط، دار دمشق، د ط، ص 5.

الضوء على عبارة نيتشه بقوله: إن الإله بالنسبة لنيتشه هو العالم المتسامي>>1، لذا تعتبر فكرة موت الإله دعوة إلى رفض كل القيم المستمدة من العالم الميتافيزيقي، أي لا توجد قوة ميتافيزيقية تتحكم في حياة الإنسان وتضع أنموذجها المتعالي للقيم والمعاني السامية، فموت الإله هو دعوة للبشر لإعادة اختراع أنفسهم في عالم أصبح يدرك الإنسان فيه أن الكون ليس مصمما لأجله، ومن هنا يتساءل عن معنى الحياة من دون إله وهذا ما يقوده إلى التشاؤم أو ما وصفه نيتشه بالسير إلى العدم ف:<< العالم الذي يتجاوز عالمنا عالم الحواس أي الإله هو اسم عالم الأفكار والمثاليات والمطلقات والكليات والثوابت، والقيم الأخلاقية ومن ثم يمكننا القول يسقط المركز بسقوط فكرة الكل المتجاوز فيصبح العالم بذلك أجزاء لا تشكل كلا ولا مركز لها، وذرات لا يربطها رابط (...) أي إن العالم يصبح نسقا سائلا بلا يقين أو معنى، أو غاية أو كينونة، والإنسان يصبح بلا ذات ولا حدود ولا استقلال ولا مركزية إن فلسفة نيتشه برؤيته للعالم باعتباره شبكة علاقات متغيرة هي دعوة إلى أن نقبل العدمية زائرا دائما بيننا>>[2].

إذن هي إنسانية تنبذ كل القيم والأخلاق المستمدة من الماوراء، بل يجب تفكيك هذه القيم في دعوة دعا إليها نيتشه، إنها دعوة "أفول لأصنام"* في حضارة "غسق الأوثان"* ومن هنا لابد من التمعن في "جينيالوجيا الأخلاق"*ودراسة "أصل الأخلاق وفصلها"*ليكون ذلك "للجميع ولغير أحد"**، إن هذا هو: <<عالم نيتشه، العالم المأساوي المتشائم الذي يشعر الإنسان فيه بالضياع وعدم الأمن (...)هو أيضا مكتف بذاته، وهو النقطة المرجعية النهائية الذي يولد معياريته

[1] -عبد الوهاب المسيري و فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، ط 1 ، 2003م،ص 28

[2]- المرجع نفسه، ص 29

*مؤلفات نيتشة

** العنوان الفرعي، لكتاب هكذا تكلم زرادشت لنيتشه.

من داخله، إلى أن يتحول تدريجيا إلى البديل الميتافيزيقي للإله>>[1]، الذي يأخذ مسارات الحياة نحو بدايات جديدة طاويا تاريخ الإنسان الأول، إنسان معجون بيد الله، مزروع الروح مجبول على حب الحقيقة والفضيلة، هذا:<< الإنسان شيء لابد من تجاوزه>>[2]، فنيتشه يضع هذا الإنسان وضعا فوق أرضي بأبعاده المادية فقط ،إنه يقول :<< أريد أن أعلم البشر معنى وجودهم، ألا وهو الإنسان الأعلى، الإنسان الصاعقة، النازلة من السحابة الداكنة>>[3]، فمن هو الإنسان الأعلى ؟

إنه ذلك الإنسان الذي لا يدعو إلى أي قيمة أو فضيلة نابعة من مرجعيته الميتافيزيقية أي ازدواجيته كمخلوق مادي/ روحي، فالإنسان الحقيقي هو الإنسان المدمر، المحطم لكل القيم إنه :<< السوبرمان الذي يولد معياريته من داخله ولا يؤمن بأي قيم خارجة عنها، ولا يؤمن إلا بفلسفة القوة كقيمة وحيدة مطلقة>>[4]،هذه القوة التي اكتسبها بعد موت الله وأَخْذِ قواه، وإنهاء علاقته به ف:<<قد كان الإنسان مخلوقا ضعيفا وكانت علاقته بالله علاقة الكلب بسيده، ثم فجأة تعلم الكلب كيفية استعمال فنون سيده بل إن السيد اختفى كلية من عالمه (...)إنه ميت >>[5].

لقد أصبح من الواضح أن الإنسان تجاوز مرحلة السؤال عن وجود الله، وبما أنه امتلك كل تلك القوى، فهل حل محله حقا ؟إن :<<ما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الله أو موته بقدر ما إنها نهاية الإنسان، إن الإنسان سيختفي >>[6]، وهي الحقيقة البائسة التي تحدث عنها "فرانسيس فوكوياما" بزهو وهو يرد الإنسان إلى كتلة جسدية حبيس غرائزه اذ يقول : << إن اختفاء الإنسان

---

[1] -عبد الوهاب المسيري، رحابة الإنسانية، ص 36 . 40.

[2] - فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، تر : علي مصباح، ص 24.

[3] - المرجع نفسه، ص 53

[4] - عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية و العمانية الشاملة، مجلد 2، ص 461.

[5] -كولن ويلسون، ما بعد اللامنتمي، تر: يوسف شرور، ص 41 .

[6] - روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، تر: جورج طرابيشي،ص 30 .

بانتهاء التاريخ ليس بكارثة كونية، فالعالم الطبيعي سيبقى كما كان عليه منذ البداية، ولا هو كارثة بيولوجية فالإنسان سيبقى حيا كالحيوانات مع الطبيعة (...)أما ماسيختفي فالإنسان بمعناه الشائع أي الذات مقابل الموضوع >>[1]، ومع ظهور علوم جديدة إلى حيز الوجود كالاقتصاد وعلم الأحياء، وعلوم اللغة...وأيضا مع إعلان موت الإله والإنسان والفلسفة والتاريخ، يمكننا أن نطرح هذا السؤال: هل سيكون للآداب والفنون المصير ذاته ؟.

في إجابة حازمة يحسم "فوكوياما" هذا السؤال بالإجابة التالية :<<لن يظل بالإمكان خلق أعمال فنية كبيرة تبلور أسمى مطامح حقبة بعينها، كإلياذة هوميروس، أو صور العذراء لدافينشي، ومايكل أنجلو(...) وذلك حيث لن تكون ثمة حقب جديدة ولا تميز معين للروح يصوره الفنانون، بوسعهم أن يكتبوا إلى الأبد في جمال الربيع أو امتلاء ثدي فتاة، غير أنه لن يمكنهم أن يقولوا شيئا جديدا عن الوضع الإنساني(...)، ذلك أن الحيوانات في مرحلة ما بعد التاريخ لن تتمتع بفهم مستفيض للعالم أو النفس >>[2]، فالفنانون والأدباء ستقتصر مواضيعهم على ما هو حسي وسطحي في هذا العالم، فلن يكون هناك وعي بالنفس الإنسانية وعالمها، حيث لا يوجد جديد يضاف إلى الوضع الإنساني.

[1]- فرانسيس فوكو ياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، تر : حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للنشر، القاهرة ط1، 1993 م،ص 270.

[2]- المرجع نفسه، ص271.

2- إنسان السيولة وثقافة المتعة في زمن اللحظة

عندما خلقت أورورو أنكيدو في البرية، جعلت جسمه يكسوه الشعر الكث، وشعر رأسه كشعر المرأة، كان يحيا حياة الوحوش، ويأكل العشب مع الضباء، إلى أن رآه الصياد وذعر منه :<<جاء الصياد إلى أبيه وفتح فاه وقال:

يا أبي رأيت رجلا عجيبا قد انحدر من التلال

يرعى الكلأ مع الحيوان البر

ويستقي معها عند مورد الماء>>[1]

إن صورة أنكيدو كانت مخيفة بالنسبة للصياد، إنه شكل لم يألفه من قبل وقد طرح والد الصياد حلا إذ أمره بالذهاب وإبلاغ جلجامش عن هذا الرجل العجيب : <<فاذهب إلى أوروك وول وجهك شطرها

وأنبئ جلجامش عن بأس هذا الرجل

وليعطك بغيا مومسا تصحبها معك أيها الصياد

وحينما يأتي ليستقي مع الحيوان من مورد الماء

دعها تخلع ثيابها وتكشف عن عورتها ومفاتن جسمها>>[2]

أدرك الصياد أن خطورة أنكيدو تكمن في مصاحبة الوحوش، وأراد أن يقضي على ذلك بإيجاد امرأة تخرجه من عالم الحيوان ليدخل عالم البشر:

[1] - طه باقر، ملحمة جلجامش، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر،دط،1995 م، ص 9 . 12

[2] - المرجع نفسه، ص 12.

<<حالما يراها فإنه سيقترب منها وينجذب إليها

وعندئذٍ ستتكره حيواناته التي ربيت معه في البرية

فأسفرت البغي عن نهديها وكشفت عن عورتها

فتمتع بمفاتن جسمها ستة أيام وسبعة ليال

فما إن رأته الضباء حتى ولت هاربة، فذعر ووهنت قواه

كلمت البغي أنكيدو وقالت له صرت تحوز الحكمة وأصبحت مثل إله فعلام تجول في الصحراء مع الحيوان >>[1]،بعد الذي حدث يتخلص أنكيدو من البدائية والتوحش، ليصبح إنسانا متحضرا ويدخل إلى أوروك، وما يجعله إنسانا هو الحب والجنس، إنها العلاقة العاطفية والإجتماعية إنها الحياة الإنسانية.

تصور لنا الملحمة هنا كيف تستطيع العلاقة الحميمة أن تُخرج الإنسان القابع داخل الوحش، فيختفي الوحش ويبقى الإنسان، إذ تكتسب التفاصيل الجسدية هنا بعدا إنسانيا <<فالجنس حالة تحقق إنساني (...) ولكي ينتقل من الوحش إلى الإنسان كان في حاجة إلى المرأة، الدخول فيها والخروج من نفسها ن يقتل ذلك الجزء الوحشي فيه>>[2]، وكثيرا ما صورت الآداب والفنون هذه العلاقات بصدقها وشوقها وانحرافاتها وخطاياها، إلا أنها ظلت معلقة بحبل إنساني قد يتأرجح بين الطهر والنجس، إنه حبل يربط الإنسان بإنسانيته وحياته، حيث كانت الحياة تستند إلى مرجعية صلبة - قيم أخلاقية - مرجعية إلهية - مبادئ إنسانية، يمكن من خلالها أن يروض الإنسان

[1]- طه باقر، ملحمة جلجامش، ص 12.

[2]- ممدوح عدوان، دفاعا عن الجنون، دار ممدوح عدوان للنشر و التوزيع ، سورية، ط2، 2012 م، ص 77 . 82.

الوحش الكامن فيه، لكن مع اختفاء هذه المرجعية الصلبة ودخول الحياة طور:<< الحياة السائلة وهي حياة محفوفة بالمخاطر، يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم(...)الناس يعيشون في مجتمع القيم الآنية العابرة(...) مجتمع يتمركز حول اللذة>>[1]، يظهر الإنسان الحيوان ابن اللحظة وعبد اللذة، لا ينشغل إلا بما يمكن استهلاكه في الآن والحال لقد أصبح:<<الإنسان ليس كائنا ثابتا(...) إنه شخص ما في يوم ما وهو شخص آخر في يوم آخر، إنه ينسى بسهولة ويعيش في لحظته>>[2]، يعيش حقبة فقدت الثقة بالذات ووهبت نفسها لفوضى الواقع الاستهلاكي، حيث الوصول إلى ذروة الديمومة مقرونٌ بسرعة الزوال، إنها حياة أُريد لها أن تعمى ليتم حشوها بما يضمن تفكيكها وعد ميتها، فكل شيء مأخوذ بقوة تأثيره القصوى وفنائه السريع حيث تُقدَّم النهايات باعتبارها الحقيقة والحكمة، والواقع الذي لا مفر منه إلا بالإقبال عليه باستهلاكه، وهكذا يصبح الإنسان معلقا بين لحظتين تولدان، تموتان، تتجددان في لحظة، إنهما لحظة متعة ولحظة زوالها، وبينهما لحظة ليعاودا نشاطهما من جديد:<<ولهذا السبب بالتحديد تميل الحياة اللحظية لتصبح حياة،عجولة فالفرصة التي قد تحملها كل نقطة ستتبعها إلى حتفها لأن هذه الفرصة المحددة الفريدة ستحظى بفرصة ثانية يمكن أن تعاش كل نقطة باعتبارها بداية جديدة >>[3]، وفي ظل هذه الحال سوف يتبخر الماضي لأنه عاجز عن تقديم الثبات والاستقرار، كما تسقط قيمة المستقبل، لأن حركة الآني والعاجل لا تتيح فرصة للتأمل والتفكير في الأزمنة القادمة، إذ تغدو الخيارات والحريات المتاحة بين أيدينا أكثر إرباكا، مما يؤدي إلى تشويش النفس وحيرتها، إذ يتم اختزال الإنسان في

---

[1]- زيغمونت بومان، الحياة السائلة، تر : حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للنشر، بيروت، ط 1 2016 م، ص 22 . 24.

[2] - كولن ولسون، اللامنتمي، تر: علي مولا، ص 49.

[3]- زيغمونت باومان، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، تر: بثينة الإبراهيم و سعد البازعي، هيئة أبو ظبي للسياحة و الثقافة،الإمارات، ط1، 2016م، ص 228.

تجارب لحظية معيار جودتها مرهون بمدى لذتها ومتعتها، دون النظر إلى ما يحكم هذه التجارب من أعراف أو قوانين أو أخلاقيات إذ يصبح:<< لا شيء سيء في الإنسان، لا شيء فيه شر أو حتى خير، لا شيء يستحق أن يُوارى أو يُخفى، كل شيء ظاهر للعيان كل عورة فخورة فيه أنها ظاهرة للعيان(...)لا شيء من أعضائه أو نزعاته وميوله تستحق أن تُخفى، ولا يختص ذلك فقط بأمور الجنس كما تعودنا أن نتصور فهناك نزعات أخرى تمت تعريتها وكشفها بعد ما كانت موارة، هناك نزعات التملك والأنانية والفردية وحب المال، بالإضافة إلى الشهوات الجنسية، وكلها كانت مخفية خلف هذا الغطاء أو تلك الغلالة، وتم نزعها بشدة واعتبارها أمورا طبيعية من الخطأ كبتها أو محاربتها أو حتى محاولة السيطرة عليها وتقنينها>>[1]، فكل شيء متاح مباح وتصبح اللحظة وليدة نكاح سفاح بين المتعة والعبث، إذ تكتسب الحياة قيمتها ويحقق الإنسان وجوده، عندما يتحرر من كل شيء، من ماضيه ومن مستقبله، حتى الحاضر يصبح عنده ركض وراء اللحظة الجديدة واقتناصها حتى لا يقتله ضجر الثبات ورتابة الأشياء التي تمسي في لحظة قديمة ولا تعبر عن صورة العالم الذي نعيش فيه، هذا العالم الذي يعد بمثابة: <<متجر ممتلئ بالثياب الأنيقة ومحاط بالحشود التي تبحث عن ذاتها يمكن للمرء أن يبدل ثيابه إلى مالا نهاية، وبالتالي يمكن لهذه الحرية الخارقة التي يتمتع بها الباحثون أن تستمر إلى الأبد لنواصل بحثنا عن ذواتنا الحقيقية إنه أمر مسل جدا، بشرط أن الذات الحقيقية لن يُعثر عليها لأنه لو حدث ذلك فستنتهي المتعة>>[2].

لذا أصبح من المطلوب بل من المفروض أن يجدد الإنسان حياته في كل لحظة يستشعر فيها فناء المتعة ليتهيأ لمتعة جديدة، فالمطلوب من الإنسان حتى يتقن فن العيش في هذه المتاهة أن يتقن أولا طلاقة الحركة وهي:<< مدينة اسمها يوتروبيا "Eutropia"(طلاقة الحركة) وهي

[1] - أحمد خيري العمري، الفردوس المستعاد و الفردوس المستعار، ص105

[2] - زيغمونت باومان، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، تر: سعد البازعي و بثينة الإبراهيم، ص 235

إحدى المدن التي صورها" إيتالوكالفينو" ففي هذه المدن عندما يستحوذ على الإنسان الملل والضجر ولا يستطيع أن يتحمل وظيفته، وأقرباءه ومنزله وزوجته، ينتقل إلى أقرب مدينة يحصل فيها على وظيفة جديدة ويتخذ زوجة جديدة ويرى منظرا جديدا عندما يفتح النافذة، ويقضي وقته في متع جديدة >>[1]، ومن ثَم تُركن الذات الإنسانية في قائمة المفقودات لتمسي إحدى الاحتمالات، أحلاهما أن لا نعثر عليها، أن لا نكتسبها فبالوصول إليها ينقطع خيط المتعة والملهاة ،فليستمتع الإنسان بهذه اللعبة الجديدة إنها الركض الدائم في البحث عن الذات وإلغاء كل شيء قد يقودنا إليها، لأنه سيقودنا إلى الثبات إلى الملل.

[1]- زيغمونت باومان،الحياة السائلة ، تر: حجاج أبو جبر، ص 255

3- العبثية والعدمية والاغتراب

تعد فلسفة العبث والعدمية والاغتراب واحدة من أهم مخلفات الحرب العالمية التي تركت الإنسان متشظيا، حائرا، قلقا، يتلوى تحت أنقاض عالم يتمزق بتمزق قيمه وأخلاقه، حيث انهارت الإنسانية فيه تحت ركام اليأس وصرخات الضياع :<< بدلت الحرب كل نظرة ومفهوم وانعطفت بجميع أقنية الحياة نحو اتجاهات جديدة (...) انهارت المجتمعات الفكرية والأدبية القديمة ونشأ جيل جديد من نسل جديد يتولى أزمة قيادة في عالم الفكر والأدب>>[1]وعلى كل حال فإن الوضع الذي آلت إليه الحضارة الغربية إبان الحرب وبعدها، ولّدت جيلا من المفكرين والكتاب والأدباء تبنوا التشاؤم في نظرتهم للعالم، وخلعوا عنه كل هدف وغاية:<< فجيل الضياع من المتمردين الذين تأكل أكبادهم المرارة والحقد على مجازر حرب عابثة لا غرض منها أو هدف لم يكن ليهتم أبدا بالدفاع عن قيم أبائه، سواء كانت هذه القيم فنية أو أخلاقية أو فلسفية >>[2]، بل تمردوا على كل الإرث الثقافي والفكري والأخلاقي، وبدا أنه ضرب من العبث :<< ففي باريس مثلا شن الكتاب والفنانون هجوما على كل شيء وأطلقوا عليه اسم دادا"Dada"وهذه الكلمة لا معنى لها أو مغزى، واعتبروا كل شيء هراء وسخفا سواء كان أدبا أو أخلاقا أو حضارة، وقالوا بأن الفن عبث والفن باطل والحياة عبث وباطل(...)وكان نشاط الدادائيين تعبيرا عن سخريتهم المريرة >>[3]، وإذا أردنا أن نورد مثالا عن أدب هذه الحركة، فلن نجد مثالا أفضل من إحدى قصائد "تزارا" وهو قائد هذه الحركة لقد:<<كان يقتطع الكلمات من الصحف والمجلات، ثم يضعها في كيس ويخض الكيس

---

[1]- دونالد ستر ومبرج،، تاريخ الفكر الأوروبي .1601. 1977،تر : أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، مصر، ط3، 1944 م، ص559.

[2] -المرجع نفسه، ص 570.

[3]-نفسه: ص 570.

وبعد ذلك يأخذ بتركيب قصيدته من الكلمات المطبوعة على القصاصات، وهذه إحدى قصائده المسحوبة كلماتها من كيسه :

إن الطائرة تنسج أسلاك التلغراف

وإن النبع يغني الأغنية ذاتها

وفي الموعد المضروب لسائق العربة كان الشراب هو البرتقال

وإن لميكانيكي القاطرات عيونا زرقا

ولقد فقدت السيدة ابتسامتها في الغابة>>[1].

فبعد التمعن في هذه القطعة الشعرية، يتضح جليا، أنها خالية من أي معنى إنها مركبة على وقع النشاز، فلا تناسق ولا انسجام يحكم النص أو يحكم الحياة والإنسان معا، فقط هو التيه والعبث ما يطغى على هذا الوجود وعلى مساعي الإنسان إذ:<< تشير الفنون إلى الضياع الإنساني، والبؤس الفكري والأخلاقي والعنف والوحشية، والخواء النفسي (...) يكتشف المسرح إنسانا يائسا عنيفا تطوقه النفس اللوامة >>[2]، إذن هوفن لا رسالة له خال من أي مضمون إنساني حيث يظهر الفرد فيه منقسما على نفسه، محطما، مركونا إلى أعتم زاوية في نفسه شاعرا بالوحدة والاغتراب، ومن ثم العزلة والانفصال عن ذاته ومجتمعه إنها غربة الإنسان عن إنسانيته، حيث يقوده فكره هذا إلى أن يضع نهاية لحياته :<< ففي عام 1971 انتحر سوناري كواباتا الكاتب الياباني الحائز على جائزة نوبل في الأدب سنة 1968وفي روايته بلاد الجليد التي نشرت عام

[1] - دونالد ستر ومبرج، تاريخ الفكر الاوروبي الحديث 1601-1977، ص 570.

[2] - علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب،تر : محمد يوسف عدس، مؤسسة العلم الحديث، ط1، 1994 م، ص 128.

1937 كتب: كانت وحدة الإنسان واغترابه في العالم الحديث بؤرة فكره>>[1]، والحق أننا حالما ندرك أزمة الإنسان المعاصر الذي فقد كل شيء، وأهم من ذلك فقد الإله الذي كان يحفه بعنايته، ويحرسه بمشيئته، فإن اجتياح اليأس لحياته وتحويلها إلى عبث نتيجة حتمية، فالذي يضفي على الكون قيمته ومعناه ويعطي للإنسان دوره ومكانته تم إزاحته، وها هو الإنسان أضحى فاشلا في فهم هذا الكون بل في فهم نفسه.

لقد أصبح وحيدا، منسلخا عن هذا العالم فاقد التواصل معه مثقلا بالكآبة والحزن وقد:<< ذهب ألبير كامو إلى أن المنطلقات الفكرية التي تُولِّد في الإنسان الإحساس بعبثية الحياة تكمن في التكرار اليومي لحوادث يومية، ووعي الإنسان بمرور الوقت وحتمية الموت وإحساس الإنسان بالعزلة عن العالم ومظاهر الطبيعة، وشعور الإنسان بغربته عن نفسه وهذا الموقف من فلسفة العبث لا يختلف عن موقف "أسلن" الذي رأى أن كل ما هو عبث يكون غاية، وإن الشيء العابث هو الذي يكون مبتورا من جذوره الدينية والميتافيزيقية العميقة، لذلك يبدو الإنسان في عصر العبث تائها وضائعا>>[2].

ومن هنا نجد كتاب العبث ينطلقون في كتاباتهم من الأحلام والكوابيس وتفاهة الحياة ومثلها، كما تسيطر فكرة التفكك بين الأفكار، وانعدام العقلانية والمنطقية في سلوك الشخصيات التي تظهر شاردة ومكسورة يملؤها الألم والخواء، وكأنها اجتثت من ذاكرتها ف:<<العصريون من الأدباء والفنانين ولاسيما في عصر الرمزيين، والانطباعيين، وعصر إليوت وبيتس وجويس، والسرياليين أيضا، وكذلك ذلك الفيض من المنجزات الفنية المذهلة والجريئة أحيانا والمتهورة أخرى،

[1] - علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، تر : محمد يوسف عدس ، ص، 128.

[2] - يحيى الشناوي،أزمة الإنسان في الأدب المعاصر، دار الكندي للنشر، عمان،ط 1، 2014م، ص 255.

والوقحة في بعض صورها، أقول إن أولئك العصريين كانوا يدركون أن ما سيعقبهم لن يكون سوى الفوضى والعقم، وذلك لأن الطريق التي أختارها هؤلاء لم يكن بالإمكان أن تفضي بهم إلى أبعد مما بلغوه، ولهذا انتهت لتتحول إلى مستنقع، وقد اعترف بهذا الواقع الشاعر العصري الكبير "سبندر" إذ قال : إن السير إلى أبعد في تلك الطريق، لا يعني سوى المزيد من التشظي والظلامية الكاملة، فكان نيتشه قد تنبأ من قبل بانحلال الفن، وقال إن الفن سينحل حتما حالما يتحرر كليا من القواعد الكلاسيكية ويخرج عن نطاقها>>[1].

إن المشهد العام لهذا العالم هو مشهد مأزقي، تتهاوى فيه الأفكار، وتنشب القطيعة مخالبها لتقطع كل رابط بين الأجيال السابقة وخليفتها اللاحقة، بل أصبحت سرعة فناء السابق أسرع من التبصر فيه واكتشافه لاكتسابه، مما خلق حالة فراغ فكري وتاريخي وأخلاقي وروحي، وميتافيزيقي، إذ كلما فغر الفراغ فاه أصبحت ظلمته أكثر حلكة وضاع الإنسان في العتمة:<< فما الإنسان سوى مشروع يتكسر على جدار الوجود /العدم، فالوجود يوجده والوجود يعدمه : يوجده بأن يمنحه حرية قبول إعدامه لوجوده في العالم، فأن يوجد المرء معناه ألا يوجد، أي أن يوجد كموجود يعدمه الوجود الذي شأنه أنه الوجود الموجد للعدم >>[2]، فالعدمية تفرض الاعتقاد بأن الحياة البشرية غير مهمة وأن العالم كله بما في ذلك وجود الإنسان بلا قيمة فالعدم هو الوجه الآخر للوجود فلكل شيء نهاية والنهاية هي التي تمنح المعنى للوجود.

[1]- دونالد سترو مبرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، 160 . 1977، تر: أحمد الشيباني، ص 641.

[2] - محمد الشيخ،فلسفة الحداثة في فكر المثقفين الهيغليين (ألكسندر كوجيف وداريك فايل)، بيروت، ط1 2008م،ص583.

4-صراع الغابة قانون الحياة

في مسيرتها الظافرة بالهلاك والدمار ودروبها الملآى بالمصائب والكوارث ارتكبت البشرية أشنع جرائمها البربرية، إذ أعلنت بشراسة إفلاس الإنسانية مُغّلِفة ذلك بأقنعة الحرية رفع الاستبداد، السلام، العدالة كلها مجرد شعارات تخفي خلفها الوجه الحقيقي لعالم ينزف بين مخالب المصالح، واحتكار الثورات، تحت ما أسموه عصر النهضة:<<إن ما نطلق عليه عصر النهضة، ما هو إلا رفض لكل القيم المطلقة، إنما هي فردية الغابة، النهضة مولد الذئاب (...)هذا هو العالم الذي تحول إلى حيوانات في غابة الرأسمالية، ومن هذا النظام القائم على المال والمصلحة الشخصية وُلد عصر النهضة>>[1]، حيث العالم تحركه الأطماع، وتحكمه المصالح يمارس تواطؤه في خديعة، ويعلن تورطه في سفور، ليسيطر على المُقَدّرات ويستحوذ على المصائر لقد أصبحت:<<الدول لها شكل الدول في الظاهر، ولكنها تتصرف كعصابات في الحقيقة والزعماء بعضهم قطاع طرق يمارسون قطع الطريق علانية ويتباهون بالمشانق والمذابح ومطاردة الخصوم إلى أقصى الأرض، لم تعد الخريطة خريطة مبادئ تتصارع ولا دول تتطاحن على مبدأ مفهوم، وإنما التحلل والتفكك يصيب الجسم الاجتماعي، وانحلت الدول إلى عصابات وأفراد وفي غياب المبادئ كاد كل فرد أن يصبح جمهورية مستقلة، وأصبح كل واحد يحارب كل واحد في منازعات يومية مصلحية لا تهدأ>>[2]،والأدهى والأخطر من ذلك، أننا ندمر كل صيغ التعايش التي تجمعنا في هذا العالم، نستعديه بصناعة المآزق التي لا تجلب سوى مزيدا من المخاطر والمساوئ التي تعصف بمختلف أشكال النشاط البشري، سياسة، اقتصاد، ثقافة، بيئة، أمن...، بل بالبشر أنفسهم، إذ تُخضعهم

[1] - روجيه غارودي، نظرات حول الإنسان، تر :يحي هويدي، مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة دط،1983م، ص 45 . 49.

[2] - مصطفى محمود، هل هو عصر الجنون ؟، ص 39.

لقانون الغاب حيث يأكل الأقوى الأضعف، ويصبح هذا القانون فلسفة حياة، يقول" داروين":<< لقد كنت مستعدا تماما، أن أقدر الصراع من أجل البقاء الذي يدور في كل مكان، وفجأة واتتني فكرة أنه في تلك الظروف قد يفَّضَل الإبقاء على بعض الشعوب، والقضاء على الآخرين الأقل حظا، ونتيجة لذلك يمكن أن تتكون أنواع جديدة، وهكذا توصلت أخيرا لصياغة نظريتي، قريبا ستقوم الأجناس ذات مستوى حضاري متفوق باستبعاد الأجناس الدنيا>>[1]، إنها نظرية النشوء والارتقاء، أو الانتخاب الطبيعي، حيث تتطور الكائنات الحية من نشأتها الأولى البسيطة إلى كائنات أكثر تطورا وتعقيدا، وعلى رأسها الإنسان تتصارع من أجل البقاء، ليتحقق البقاء للأقوى.

لقد كان لهذه النظرية تأثيرا واسعا في تشكيل الفكر الحديث وعلى مختلف الحقول العلمية والفكرية والاقتصادية والسياسية، بل فتحنا بها بابا جديدا يدخلنا إلى عالم مجنون ف:

<< هل هو عالم مجنون ؟ !!لا أظن لأنه يصطنع الحجج والمنطق والحيثيات لكل ما يفعل وقبل أن يقتل يضع نظرية للقتل، وقبل أن يضرب ويدمر يسوق المعاذير والمبررات والذرائع، حتى اللامعقول نراه يكسوه بسبب معقول وثوب معقول >>[2]، ليزداد اضمحلال الإنسان وتتزايد قطيعته مع أخيه، ومع العالم كله، وتصبح الحياة والموت لعبة ينسج خيوطها من يملكون ليدفع ثمنها من لا يملكون، الأرض كلها أضحت كرة نار تتقد حسب توقيع الطلب والمصلحة لتتحقق مقولة "هوبز"، الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، فالكل يتربص بالكل والضعيف متروك لحتفه المدروس:<< إن الفترة التي عشناها والتي نعيشها الآن تمدنا بدليل كاف حول لا عقلانية الإنسان

[1]- روجيه غارودي، نظرات حول الإنسان،تر :يحي هويدي، ص 72.

[2] - مصطفى محمود، هل هو عصر الجنون؟، ص 33.

وجنونه، بحيث لا نحتاج حقيقة لما يذكرنا كم يمكن أن يكون الإنسان شريرا >>[1]، إنه يرفع أجمل الشعارات العدل- الحرية -، وهو "يمارس في الوقت ذاته الظلم في كل مكان تطاله يداه إنه التوحش يختفي تحت عباءة الحضارة :<<لنتذكر اعتراف الشاعر " تشيسلاف ميلوش" في إحدى المقابلات وأيضا في مذكراته 1997 حيث قال إنه دائما ما اعتبر نظرية التطور لاهوت شر، والعجيب أن تشارلز داروين نفسه اعتبر أن فكرة البقاء للأقوى باعتبارها مكونا جوهريا لنظرية التطور تشتمل على لاهوت شر تتجدل فيه أشكال الحياة والموت في ضفيرة واحدة >>[2]، وهنا تكمن المفارقة التي ولدها مبدأ الصراع الإنساني من أجل البقاء، حيث تزداد الهوة عمقا واتساعا بين الدول والشعوب، بل بين الأفراد في المجتمع الواحد، فلم يعد التنافس المشحون فقط على موارد الطبيعة، بل إنه صراع بين الإنسان وبني نوعه، إنه منطق الذئاب حيث غطرسة القوة قانون للحياة.

وهكذا أصبح مستقبل العالم معلقا بالربح والاستثمار، والاستحواذ على الموارد، بل على كل أشكال الحياة، وهوما يطلق عليه أرباب الساسة، النظام العالمي الجديد، حيث أصبح العدوان واحدة من أهم صفات الممارسة الحياتية عند الإنسان بصفة عامة، وعند الإنسان الأمريكي بصفة خاصة بل هي لب سياسته:<< ففي عام 1942أصدر "نيكولاس سبكميلان" كتابا شهيرا أصبح إنجيلا للمفكرين السياسيين في الولايات المتحدة الأمريكية لفترة طويلة عنوانه الاستراتيجية الأمريكية في السياسة الدولية دعا فيه بصراحة إلى سيادة شريعة الغاب في السياسة الدولية، وقال بالنص :إن المجتمع الدولي يسمح باستخدام كافة وسائل القهر والإكراه، بما فيها الحرب والتدمير، ومعنى

[1] - أريك فروم، كينونة الإنسان،تر :محمد حبيب، دار الحوار للنشر و التوزيع، اللاذقية، سورية، ط1 2013 م، ص 84.

[2] - زيغمونت باومان، الشر السائل، تر : حجاج أبو جبر،ص، 177.

ذلك أن الصراع من أجل القوة لا يختلف في شيء عن الصراع من أجل البقاء، فالقوة تعني البقاء وتعني القدرة على فرض إرادة دولة على الدول الأخرى وقدرتها على إملاء شروطها على من يفتقرون إلى القوة>>[1]، وهذا ما حول الأرض برمتها إلى ممتلكات خاصة، تخص من يملك قوة تدميرها، فبيده يمنح الحياة، وبيده ينهيها، ولعل أصدق وصف لهذه الحال ما قاله الشاعر" أحمد مطرفي قصيدة **الغابة** :

<<صديقتي الوفية....

ولى الشباب وانطوت أحلامه الوردية

نحن على مفترق

أنواره مظلمة... وصبحه عشية

أمامنا مَمَاتُنا

وخلفنا وفاتنا

وعن يميننا الردى

وعن يسارنا الردى

وفوقنا منية... وتحتنا منية

قد آن منذ الآن، أن تنتبهي

كل الخطى تبدأ حيث تنتهي

[1]- صلاح عثمان، الداروينية و الإنسان، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، دط،2001م، ص 209 . 210.

والأرض لا ربط لها

بالكرة الأرضية

الأرض ما عادت سوى

عاهرة رسمية

قبيحة

قاسية

غنية

غبية

وباختصار بالغ

الأرض أمريكية>>[1]

لقد أسست الولايات المتحدة الأمريكية النظام العالمي الجديد الذي يقوم على الهيمنة على العالم بشتى الطرق، حضارية وسياسية واقتصادية وعسكرية وغيرها، فهي الدولة القوية التي تتحكم في الدول الأخرى، بحيث لا تمتلك أي منها القدرة العسكرية على شن حرب عليها، فالولايات المتحدة الأمريكية تطرح نفسها كإمبراطورية عظمى لا تستطيع أن تنافسها، أوتقف في وجهها أي قوة أخرى في العالم.

[1]- أحمد مطر، المجموعة الشعرية، دار الحرية، بيروت، لبنان، ط 1، 2011 م، ص 233.

الفصـــــــل الثـــاني:

تجليات الديستوبيا في رواية عالم جديد شجاع

" لألدوس هكسلي "

1. **وصف المدونة**
2. **تأليه العلم ومكننة الإنسان**
3. **أخلقة المتعة وحرية الجنس**
4. **إلغاء الإله واختفاء الإنسان الإنساني**

1- وصف المدونة

في مشهديات ديستوبية ينسج هكسلي أحداث روايته من عالم يصبح العلم فيه خالقا للبشر ويصبح البشر مجموعات من النسوخ المكررة، تولت إنتاجها أيدي علماء البيولوجيا في غرف التخصيب، ثم تم تفريغها وهي أجنة في زجاجات، وبذلك يتم انتاج رجال ونساء معياريين في مجموعات موحدة، حيث يتخذ كل انسان شكل القالب الذي صنعته الهندسة الوراثية بأمر الدولة، أو كما تسمى الدولة العالمية.

إنه عالم يبدو للوهلة الأولى يوتوبيا، حيث لا حروب ولا خوف ولا مرض ولا جوع، شباب دائم لا تهاجمه الشيخوخة، حتى العمر يمكن إطالته فكل ذلك خضع للتعديل الجيني. في مرحلة التخصيب، فالأمزجة يمكن السيطرة عليها بالعقاقير والحقن، والسعادة يتم خلقها بحبوب ـ سوما ـ الكيميائية، أما الحب والجنس فيتم إثارتهما بعلكة ذات هرمونات جنسية وأفلام حسية، حيث تصبح العلاقات متاحة للجميع ومع الجميع، فلا وازع ولا رادع.

وخلف كل هذا المتاح والمباح، نكتشف ديستوبية هذا العالم، إذ يختفي تفرد الإنسان وسط هذا القطيع البشري تحت شعار "الجميع ينتمي للجميع"، هذا العالم يديره مدير التخصيب، ومدير التعبئة، ومدير تعيين الأقدار، وكذا أساتذة مختصون في الأفلام الحسية من جامعة الهندسة الانفعالية.

إنه عالم العلماء، وعالم الآلات والعقاقير والأقراص، بل إنه عالم مؤسس لأجل سيطرة العلم على حياة الناس، حيث يعد علم البيولوجيا العلم الرئيسي الذي يبنى به هذا العالم، فبه يتم إنتاج الإنسان من الحاضنة الزجاجية وفق معايير معينة، مما يجعل هذه الكائنات البشرية متشابهة إنها نسخ مكررة من بعضها، توائم متماثلة ومتطابقة، ليس كما في زمن الحمل، والولادة الطبيعية

القديمة حينما تنقسم البويضة بالمصادفة إلى توأمين أو ثلاثة، ولكن هنا في مخابر هذا العالم تنقسم البويضة لإنتاج التوائم بالعشرات في المرة الواحدة، وبعدها تزود المصانع بالعمال فستة وتسعون من التوائم المتماثلة يشغلون ستا وتسعين ماكينة متماثلة.

أما زمن الرواية فيبدأ بتاريخ 632 بعد فورد، هذا هو الزمن الذي بدأ هكسلي يؤرخ فيه لأحداث روايته، وفورد هو أكبر شخصية صناعية في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يعتبر إمبراطور صناعة السيارات ومؤسس شركة فورد التي كان لها بالغ الأثر في التطور التكنولوجي في الولايات المتحدة الأمريكية، ويظهره الكاتب في الرواية بصورة إله لهذا ا لعالم ويبدو أن اختيار هذا التاريخ وهذه الشخصية له دلالة على ربط المستقبل والتاريخ القادم بحضارة العلم والتكنولوجيا والتقدم، حيث يصبح كل ما كان قبل هذا التاريخ قديما وبدائيا ومنبوذا.

أما مكان الرواية فهو مركز وسط لندن للتفريخ والتكييف، فهنا يصور لنا الكاتب مدينة العلماء، حيث يسيطر العلم على البشر إلى حد إلغاء وإنكار كل شيء طبيعي في الإنسان، بل الإنسان الطبيعي ذاته، ذلك المخلوق الذي تكون في الرحم نتيجة علاقة زواج، أناس هذا العالم الجديد أجنة تكونت في القوارير بطريقة علمية وآلات تكنولوجية، ثم تم تصنيفها إلى خمس طبقات حسب احتياجات المجتمع أو الدولة العالمية.

وهذه الطبقات مرتبة حسب الأحرف الأبجدية كمايلي:

ألفا وبيتا :وهما الطبقتان الأرقى من كل الطبقات يتمتعان بمستوى اجتماعي وفكري عاليين منهما ينحدر قادة العالم والعلماء بحيث تتقدم طبقة ألفا عن طبقة بيتا.

طبقة جاما: وهي الطبقة الأقل مستوى عن نظيرتها يتولى البشر المنحدرون من سلالة جاما الأعمال المكتبية والإدارية.

طبقة دلتا: وهي الطبقة الغبية التي يتولى أفرادها الأعمال اليدوية.

طبقة إبسلون : وهي الطبقة الأدنى والأكثر غباء من كل الطبقات، وتوكل إليها أعمال النظافة، وغيرها من هذا النوع من الأعمال.

هذه الطبقات الخمس تهيأ وهي أجنة بما يلائم تكوينها الجسماني والعقلي، وتكيف على ذلك حتى تغدو فاقدة للوعي وللفرادة والشخصية، وراضية بذلك، بل إن تهيئتها تجعلها ممتنة لما هي عليه، فالكل في هذا العالم يعمل لأجل الجميع، فلا يوجد طبقة تثور أو تمانع بل كيف يمكنها ذلك وهي لا تستطيع إدراك ما هو خارج دروس التلقين والتكييف الذي خضعت له وهي في مرحلة الأجنة وكذلك الطفولة، فما أصبحت عليه يشكل هويتها الجماعية وهذا هو شعار الدولة العالمية (المجتمع ـ الهوية ـ الاستقرار) فكل ما يهم هذه الدولة هو جعل البشر عبَّادا للنظام والعمل والإنتاج والاستهلاك لتحقيق الرخاء وتحقيق السعادة مقابل تفريغ الإنسان من شخصيته وفرديته، والقضاء على كل ما يحقق له ذلك مثل الكتب والفنون والدين، بل تغييب العقل عن التفكير الذي يحقق له بصمته الإنسانية الفريدة وإغراقه في وهم السعادة المصنعة التي تحققها حبة دواء السوما وكذا الدعوة المفتوحة للجنس للترويح عن النفس وتسليتها، طالما لا توجد علاقات دائمة، ولا روابط عائلية بل وجودها مناف لأخلاق الدولة، فلا شيء يدعو للكبت أو الخوف أو حتى التردد، فكل هذا يحدث بدعم الدولة نفسها التي تشجع على المتع الحسية والاستهلاك.

ففي هذا العالم الديستوبي تصبح الحرية أمام كل هذه المغريات وهما والتفكير فيها جريمة عظمى، أما البحث عن الفرادة الشخصية وخصوصية الفرد فهو ذنب لا يغتفر، بل يؤدي بصاحبه إلى النفي من هذا العالم.

وهكذا، يتمدد جسد الحكاية بين البداية والنهاية عارضا لنا المستقبل بقيمه المادية، وكذا الإنسان المعاصر المستعبد من طرف آلاته ومنتجاته التي صيرته الى شيء من الأشياء والتي ابتلعت حريته وقيمه الروحية.

إن الكاتب هنا يصور لنا مصير الإنسان في ظل هذا التسارع المخيف للتطور العلمي والتكنولوجي الذي يتحقق ويتصاعد كل يوم، بل وكأنه في هذه الرواية لا يأتمن العلم على مصير الإنسان، ومستقبل العالم في ظل غياب الحرية والعقائد والأخلاق، إنها دعوة للصحوة الإنسانية التي ما لبثت تتراجع أمام هذا السيل الحضاري المادي الجارف الذي لا يتوقف.

2- تأليه العلم ومكننة الإنسان

يتناول هكسلي في هذه الرواية جوهر الوجود الإنساني، فهو نص سردي فلسفي، علمي ملون بخيال شعري، إنه يعرض لنا عالما مهددا بزوال الإنسان الإنساني أمام تطور التقنية، فهذه الرواية لا تواجهنا مباشرة بانسلاخ الإنسانية عن الإنسان، حيث تختفي إرادته وفرادته وإنما تنظر مع قارئها في الخلفية حيث تحدث الأشياء الأكثر فظاعة في حلتها الأبهى ومعهما يبدو الأمر جذابا في ظاهره.

إنها تلك الزاوية المخفية والمخيفة لعالم تحنطت فيه آدمية البشر ولم يبق منها سوى رسمها، فأصبحت كالآلات والأشياء، تفتح الرواية ذهن القارئ، ليرى المدنس والممنوع يختال في زي المقدس والمرغوب، وهكذا تكشف بشاعة حياة الكائن البشري الذي انتُزعت منه ذاته وشخصيته، فهذه الصورة الديستوبية المفزعة تملأ العمل كله، الذي جرت أحداثه في مركز للتفريخ والتكييف وسط لندن، وفي جولة يقوم بها مدير المركز لعدد من الطلبة يشرح لهم فيها كيفية إنتاج البشر متنقلا بهم في أرجاء المركز/ المصنع :<< اقترب شاب متورد اللون، وقال : هل يمكنك أن تخبرنا الرقم القياسي الذي أنتجه مبيض من المبايض يا سيد فوستر ؟ أجاب فوستر بلا تردد : ستة عشر ألفا، واثنا عشر في هذا المركز، كان يتحدث بسرعة كبيرة، وعيناه الزرقاوان تلمعان بالحيوية وبدا واضحا استمتاعه بسرد الإحصائيات >>[1] إن الأمر يبدو شبيها بأي شيء آخر ينتج في المصانع، يُجرى ترقيمه وترتيبه ثم تعليبه.

لقد اقتلع العلم الإنسان من منبت تكوينه، من رحم طبيعي، وجرى انتزاعه من زجاجة، وهنا تصبح الولادة الطبيعية واحدة من الأوهام والخرافات الخالدة والبشر الذين يولدون إنما هي

[1]-الدوس هكسلي، عالم جديد شجاع، تر : مروة سامي،ص14.

كائنات عابرة في مجرى التاريخ، بل أسطورة آمن الإنسان بها نتيجة ضعفه أمام قوى الطبيعة:<<استجمع أحد الطلبة شجاعته ورفع يده: كان البشر قديما... تردد واحمر وجهه...، ثم اندفع قائلا: كانوا يولدون وكان لهم والدين، أومأ المدير موافقا: هذا صحيح تماما... وعندما كانت الأطفال تفرغ... فصحح له المدير: تولد. لخص المدير الأمر قائلا: باختصار كان الوالدان هما الأب والأم، وهكذا صدم الطلبة، فيما ظنوه خيالا شعبيا رخيصا، فإذا به حقيقة، فأطرقوا صامتين>>[1]، فمع امتلاك المعرفة والعلم وآليات إخضاع الطبيعة للمشيئة الإنسانية، أصبح الإنسان نفسه صناعة وإنتاج، ففي هذا العالم الذي تأله فيه العلم، يقيم الناس المُنتَجون والمَصنُوعون طقسا شاكرين فيه هذا الإله الذي أخرجهم إلى الوجود، وبصوت واحد يشبه أداء صلاة ينشد الجميع :

<< يا زجاجتي أنت التي أردتك يوما

يا زجاجتي لماذا فُرّغت منك يوما ؟

كانت السماء داخلك زرقاء

والطقس جميلا دون مراء

فلا توجد في العالم كله زجاجة

مثل زجاجتي الصغيرة العزيزة>>[2]

[1]- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع، تر : مروة سامي، ص 36.

[2]- المرجع نفسه، ص 101.

هنا شعر الإنسان أنه في ذروة انتصاره على الطبيعة وبذلك يصبح عبدا لاختراعه وسجينا لإبداعه حيث يواصل السيد فوستر شرح هذا الانتصار لطلابه: << وهذا ينقلنا أخيرا من المحاكاة الصاغرة للطبيعة إلى رحاب عالم الإبداع الإنساني الأكثر إثارة وفرك يديه متحمسا : إنهم هنا لم يكتفوا بالطبع بتفريخ الأجنة، فهذا عمل يمكن أن تقوم به أي بقرة ! إننا نحدد أقدار الأجنة ونكيفهم نحن نفرغ أطفالنا ليصبحوا اجتماعيين (...) كان سيقول أو يصبحوا حكام العالم المستقبليين، ولكنه استدرك قائلا : أو يصبحوا مديري المفارخ (...) وهذا هو سر السعادة والفضيلة، أن تحب ما يجب عليك عمله، وهذا هوما نهدف إليه بكل ما نقوم به من تكييف، أن نجعل الناس يحبون قدرهم الاجتماعي المقهورين عليه >>[1].

نجد هنا أن المنطق الديستوبي يخترق العالم الجديد الشجاع من منطلقين، أحدهما علمي مبني على أساس التطور التكنولوجي، وآخر فني يتوارى خلف مشهديات متخيلة وأخرى حقيقية، فكل شيء في هذا العالم يخضع لقوانين الدولة العالمية التي راهنت على استبدال وعي البشر وقدرتهم على تطوير ذواتهم وعيش حرياتهم التي يصنعونها بأيديهم، راهنت عليها ببدائل الرفاه المزيف، فالمنطق المطلق للشر يزين للإنسان رذائله بكل وسائل الغواية، فالشر هنا تولَّد من رحم العلم الذي عتى وتجبر، وأصبح العلماء شياطينه التي تمارس فنون الغواية والإغراء من جهة، ومن جهة أخرى تمد يد البطش مقوية بها سطوة الدولة الدكتاتورية المتخفية خلف زيف الحرية، وهذا ما يؤكده مدير المركز:<< أن نجعل الناس يحبون قدرهم الاجتماعي المقهورين عليه >>[2]، هكذا : <<انطلق المارد من القمقم، انطلق العلم من قيوده جميعا، على العكس من مارد الأسطورة، فلن

[1]- ألدوس هكسلي ،عالم جديد شجاع ، تر: مروة سامي، ص 22 . 25

[2]- المرجع نفسه، ص 25.

يعود العلم مرة أخرى إلى قمم السحرة فهو وحده ساحر العصر الحديث >>[1]، لقد استطاع هذا الساحر المعبود السيطرة على عقول بشر عالم هكسلي بعد انتاجهم حسب حاجات الدولة، لقد أخضعهم وهم أجنة وبعدها أطفالا لدروس التلقين، وهي عبارات معينة لها صفة القداسة، يتم تلقينها للأطفال وتكرارها عشرات المرات، لتحقق تأثيرها النفسي المطلوب، وهي تسمى بجلسات التعلم أثناء النوم، مثل :<< إن الجميع ينتمي إلى الجميع >>[2] و<< نحن نلقي ثيابنا القديمة دائما، إهلاكها أفضل من إصلاحها>>[3]، و<<أحب الثياب الجديدة أحب الثياب الجديدة... وعقار سوما يعالج سنتمتر مكعب واحد عشرة من المشاعر القاتمة >>[4]، وهكذا تُحشى عقول الأطفال بعبارات مكررة، وتجري برمجة أدمغتهم بمفردات وعبارات تقدس العمل والاستهلاك والنظام، ومن ثم يكبرون ويحيون كآلات بشرية، <<إن الماكينة الهائلة هي النظام الاجتماعي المنظم المتناسق بشكل كلي، حيث أن المجتمع على هذا النحو يعمل أشبه بماكينة، والناس أشبه بتروسها أو أجزائها>>[5]،

يرتحل بنا ألدوس هكسلي في عالمه الضبابي، حيث لا تبدو الرؤية للوهلة الأولى شفافة، إنه عالم مراوغ لا يقول (لا) لأي ممتع، لا شيء مخبوء، إنه مثل الشرك وإن كانت قابلية القارئ للضياع فيما هو جزئي، فإنه قد حجب بيديه عينيه عن رؤية الصورة الكاملة، هذه الصورة التي تشكلت من رصد متغيرات الواقع المعلنة، والمضمرة والمتخيلة، وصبها فنيا في المضامين والمتون، لأن الأمر يتعلق بأدب المدينة الفاسدة أو أدب الديستوبيا، فإن الرواية هنا تعلن تحيزها للإنسان

---

[1] - صلاح عثمان، الداروينية و الإنسان، ص 219.

[2] - ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع، تر: مروة سامي ، ص 56.

[3] - المرجع نفسه 68.

[4] - المرجع نفسه 73 .

[5] - إريك فرم، ثورة الأمل : تكنولوجية مؤنسة، تر، مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، سنة 2010، ص 58.

والوجود :<< هذا الإنسان المقذوف عشوائيا لغزو العالم الخارجي، والمشغول بالأشياء وحدها، يتشيأ في النهاية، وينحدر إلى عالم قاس تحكمه الجبرية العمياء وكف الإنسان الذي تغذيه الأشياء، كما أنه لعبة خشبية في الواقع الذي استدعاه بنفسه عن أن يكون حرا، بل أصبح مجهولا، لا شخصيا، شأن أدواته >>[1]، ففي حضارة ما بعد فورد، أي في العالم الجديد الشجاع، يحل العلم محل الإله وتختفي المشاعر الإنسانية بل يجري إغراقها في المتع الحسية والاستهلاك، وهذا ما تؤكده شخصية مصطفى موند الملقب باسم المبجل فورد، في حوار مع شخصية جون الملقب بالبدائي، لأنه جاء زائرا لهذا العالم الممكنن، من منطقة تدعى المحمية، حيث لا يزال أناسها يتناسلون بالطريقة الطبيعية، ويعيشون الحياة بكل تقلباتها المادية والمعنوية، حيث يوجد الفرح والحزن، الجوع والفقر، المرض والشيخوخة الحب والكره، مما يجعلهم مزدرين منبوذين من قبل شعب العالم الجديد الذي يلقبهم بالبدائيين.

ففي حوار جرى بين الشخصيتين يتساءل جون البدائي عن الذات الإنسانية والنبل والبطولة في العالم الجديد الشجاع، فيجيبه مصطفى موند :<< يا صديقي العزيز الشاب إن الحضارة لا حاجة لها إلى النبل أو البطولة، إن تلك الأشياء ماهي إلا أعراض للقصور السياسي، أما في مجتمع منظم تنظيما جيدا كمجتمعنا، فلا تتاح لأي أحد فرصة أن يكون بطلا نبيلا (...) فأنت تم تكييفك كليا بحيث لا تملك إلا أن تسلك السلوك الذي ينبغي عليك فعله، وما ينبغي عليك فعله في العموم شيء لطيف(...)، وإذا حدث مرة أي مكروه فهناك عقار السوما كي تسكن غضبك فما عليك إلا ابتلاع قرصين أو ثلاثة أقراص، لتنتهي متاعبك، وهكذا في وسع أي شخص أن يكون فاضلا، وهكذا يمكنك أن تحمل نصف ضعفك البشري معك في قنينة، لقد تحققت المسيحية

[1]. إرنستوساباتو، الكاتب وكوابيسه، تر، عدنان المبارك ، ص 38

دون دموعها وعذاباتها في سوما>>[1]، يتحدث مصطفى موند هنا عن الإنسان بوصفه كائنا ماديا لا يملك القدرة على التصرف من أجل تحقيق أهداف ينتقيها هو بنفسه بملء إرادته.

إنه يعيش حياته البيولوجية فقط، لقد أصبح الإنسان شيئا، بل أكثر من ذلك أصبح عبدا لمنتوجه، وهذا ما كرست له الدولة جهدها، فالمواطن المستلب الذات هو المواطن الأصلح، إذ إن << ديناميكية التقدم التقني قد تلبست على الدوام محتوى سياسيا، وقد أصبح لوغوس التقنية لوغوس العبودية المستديمة، وقد كان في الإمكان أن تكون قوة التكنولوجيا قوة محررة عن طريق تحويل الأشياء إلى أدوات، ولكنها أصبحت عقبة في وجه التحرر عن طريق تحويل البشرالى أدوات >>[2]، ففي هذا العالم الجديد يبدو الكل راضيا بما يتاح له من ملذات مادية وجسدية، إلا أن ذلك تطلب التضحية بحرية الإنسان وكرامته في أن يكون إنسانا آدميا، وبهذا يكون العلم قد تحول إلى سلاح للعبودية، وضاع تفرد الإنسان في وهم شعار الجميع ينتمي للجميع.

فالرواية تطرح تساؤلا حول مصير الإنسان الكائن أمام مقتضيات الواقع التي فرضت الماكينة، إنها باختصار تساؤلات تتوخى زحزحة إنسانية الإنسان التي تنشد التطور على الدوام، لتفتح الطريق أمام احتمالات تؤدي بجوهر الإنسان وآدميته إلى تشييئه ومكننته.

إن جمالية هذه الأطروحة وطريقة تقديمها تخضع إلى سلطة النص السردي، حيث تتقاطع وتتكاثف الحمولات الثقافية والعلمية التي تبني على وفقها الرواية حبكتها وتستقي حججها. يقول هكسلي:<< العالم الذي يمثل اهتمام الأدب، إنما هو العالم الذي يولد فيه الناس ويعيشون

[1] -ألدوس هكسلي ، عالم جديد شجاع ،تر: مروة سامي، ص 315. 316 .

[2] - هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، تر، جورج طرابيشي، منشورات الآداب . بيروت، ط3، سنة 1968م، ص191.

وفي النهاية يموتون، إنه العالم الذي فيه يحبون ويكرهون، يعيشون فيه المجد والمذلة والأمل واليأس عالم الألم والسعادة، الجنون والحس السليم، عالم الغباء والخبث والحكمة، عالم كل أنواع الضغط الاجتماعي والدوافع الفردية، عالم الشقاق بين العقل والعاطفة وعالم الغرائز والأعراف>>[1]، فالكاتب في عمله هذا يصور لنا صدمته من العلم الذي كان من المفترض أن نعول عليه لإنقاذ البشرية، فإذا به يدمر العالم ومعه الإنسان، هذا هو العالم الحقيقي الذي يطمح إلى تحقيقه هكسلي سواء من خلال رائعته هذه، أوفي الواقع، إنه عالم إنساني.

[1]- يورغن هاربر ماس، العلم و التقنية كأيديولوجية، تر: حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1، سنة 2003م، ص 96.

3-أخلقة المتعة وحرية الجنس

وصلت البشرية اليوم بابتكاراتها وعلومها إلى مرحلة حققت فيها كل حاجاتها المادية، وفي المقابل أضاعت انسانيتها، ففي هذه الحال << يعبد الإنسان وسائل وغايات الجشع: الإنتاج الاستهلاك(....) وبقدر ما يقوي أصنامه يضعف هو>>[1]، ويبدو أن النظام السياسي في العالم الجديد الشجاع أدرك جيدا توظيف هذه الميزة لخدمة أهدافه، وذلك بتدجين الإنسان في مجتمع رفاه استهلاكي، فالكاتب يعرض لنا استراتيجية الأنظمة القمعية التي تراوغ وتتحايل على شعوبها باستبدال الحرية السياسية التي من شأنها أنها حرية إنسانية، بزيادة جرعة الاستهلاك والدعوة المفتوحة للحرية الجنسية.

في الدولة العالمية ـ في هذا العالم الجديد ـ يقول مصطفى موند : <<إن شأن الحكومة هو أن تضع القواعد، لا أن تضرب بيد من حديد، إنك تحكم باستخدام العقل، وباستخدام رغبات الناس للسيطرة عليهم (....) على كل رجل وامرأة وطفل أن يستهلكوا قدرا معينا سنويا من أجل ازدهار الصناعة >>[2]، فالناس محكومون بالسعادة واللذة، بحيث تضع الحكومة قوانينها وقواعدها لإزالة المعاناة عن الناس وفي المقابل إزالة الحرية والإرادات الفردية. إنه عالم مادي مبني على عرض المتعة وضرورة استهلاكها :<<هذا النمط يحول الإنسان إلى إنسان مستهلك، والمستهلك الشامل والذي هدفه الوحيد بأن يملك المزيد وأن يستخدم أكثر إنه الرضيع الأبدي ذو الفم المفتوح>>[3].

---

[1]- إريك فروم، كينونة الانسان، تر: محمد حبيب، ص 109.

[2]- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع، تر: مروة سامي، ص 68.

[3]- إريك فروم، ثورة الامل: نحو تكنولوجيا مؤنسنة، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ص 70.

يسود الرواية جو من الفوضى الأخلاقية المنظمة، والتي تنمي موجة الديستوبيا في هذا العالم، حيث يختفي صوت الضمير الإنساني، أمام صوت العلم والسلطة، وبهذا تكون الدولة حققت خنوع البشر من غير اضطهاد، أو كما يشيد الملقب باسم المبجل فورد لطلبته قائلا: << وهكذا ضمن الاستقرار بوسائل علمية فالشخصية تظل ثابتة خلال عمرها كله، فتظل قدراتنا وأذواقنا في الستين على ما كانت عليه عندما كنا في السابعة عشر، أما كبار السن في العصور القديمة والعصيبة، فقد اعتادوا على الاعتزال والتقاعد والالتجاء إلى الدين وقضاء وقتهم في القراءة والتفكير، ثم المزيد من التفكير (!....)هذا هو التقدم الحق، كبار السن يعملون ويجامعون كبار السن، ليس لديهم وقت فراغ، ولا ينقطعون عن اللذات، كبار السن لا يملكون دقيقة فراغ واحدة للجلوس والتأمل، أما لو حدثت نتيجة صدفة غير سارة، ثغرة ما في التيار المتدفق من النشاطات الملهية فإن سوما يتكفل بهذا الأمر، سوما اللذيذ !>>[1].

فالانغماس في الملذات وانعدام الأخلاق والمشاعر الإنسانية هي السبيل لتحقيق مجتمع سعيد، مجتمع يغرق الفرد فيه بالملهيات وحبوب السوما المخدرة، والجنس الرخيص، فالكل يتطلع إلى ما وراء اللحظة إلى ما يتم استعراضه على أنه الأفضل، أما:<<وعود الارتباط ما إن يقطعها أهل الحب على أنفسهم لا معنى لها على المدى الطويل، لأن امتداد الزمن آخره الآن وهنا >>[2]، وهذا ما يجعل من :<< الحب في أشرق حالاته سلعة (....) ولا عجب أن ينتهي سارتر إلى فكرته الشهيرة الرجل شهوة ضالة >>[3]، ففي هذه الحضارة تصبح العلاقات المتعددة والمفتوحة ومشاهدة

[1]- ألدوس هكسلي ،عالم جديد شجاع، تر :مروة سامي، ص 74-75.

[2]- زيغموند باومان، الحب السائل : عن هشاشة الروابط الإنسانية، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1 . سنة 2016 م ص .19

[3] - كولن ولسن، ما بعد اللامنتمي ، تر: يوسف شرور ، ص 128 .

الأفلام الحسية أمورا عادية، والإقبال عليها شيء طبيعي، إنه طقس العربدة، حيث تمارس العلاقات بشكل مفتوح وجماعي، إنه طقس يسفر عن الموت الروحي للإنسان، حيث أصبح جسده أقصى مطالبه في خضم سكرة العقل :

<< طقس العربدة ، فورد ومداعبة

قَبل الفتيات واجعلهن واحدة

وفي سلام فليتحد الفتية مع الفتيات

في طقس العربدة يفرغ الكبت >>[1]

نلمس في هذا المشهد أن فعل الحب تقوله لغة الجسد والجنس والمتعة واللذة وبذلك تصوغه صوغا حيوانيا، ففي وهم الإتحاد، ينشغل كل فرد بمتعته، فيصبح الأمر كله فعلا ميكانيكيا متجردا من عمقه ،إنه فعل شراهة يغذى باستهلاك جسد الآخر، مجرد أجساد كالأشياء لا تملك هوية، ولأن الأمر كذلك نجحت حكومة العالم الجديد في قتل الفرادة، وسحق الحرية تحت شعار الجميع ينتمي للجميع هنا الأجساد هي الجميع وللجميع فاستمتع واستهلك إنك موجود في العالم الجديد الشجاع، حيث :<< الحياة تخلت عن صلابة جذورها، عن الحياة العاطفية، في ظل غياب أعمدة وسقف، حين تختفي الثقة وتسود المغامرة، حين يأكل الإنسان الثمار المحرمة وهو يظن أنه سيجد جنته المفقودة، وتعده آلة التسويق بقمة اللذة، منتهى النشوة، غاية المتعة، فيدخل إلى عالم الصلات العابرة ظنا منه أنه يتخفف من مسئوليات، ولا يحرم نفسه من فرص تظهر وآفاق تستجد

[1]- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع ، تر: مروة سامي، ص 111.

>>[1]، إن الاقتصار على شريك واحد، وإقامة علاقة عاطفية دائمة، يعد في هذا العالم تضييقا على الحيوية، وجرم يستوجب العقاب :<< قالت فاني لزميلتها لينينا بنبرة مختلفة : ولكن جديا أرى أنه عليك الحذر، فذلك منحى سيء جدا أن تستمري في مواعدة رجل واحد (...) لا هذا غير مقبول، إنك لتعلمين كيف يعترض مدير المركز على أي تعمق في العلاقات واستمرارها على المدى الطويل، أربعة شهور تواعدين هنري فوستر وحده ! لسوف يثور غضبا لو علم بهذا... على كل حال ليس هناك ما يؤلم أو يسيء في الحصول على رجل آخر أو اثنين بجانب هنري، إنني أرى أنه عليك أن تكوني أكثر إباحية...>>[2]

إن هذا المشهد ليختزل حقا حقيقة العالم المصطنع الذي لم يبق فيه ما هو طبيعي، فالإنسانية تذرها الشهوات والأجساد مطموسة بلا هوية ولا معتقدات، والعلاقات فضفاضة ليسهل فكها وتركيبها مثل قطع غيار أو أي منتج مرهون بمدة صلاحيته، حيث لا صلاحية مستديمة: <<تصف كاثرين جارفي لحظة الوقوع في الحب هذه في صحيفة الغارديان الأسبوعية قائلة : تلتقي أعينكما عبر غرفة مزدحمة، تشتعل حرارة الجاذبية، تتجاذبان أطراف الحديث، ترقصان تضحكان، تتناولان الشراب أو تمزحان، وفي طرفة عين يسأل أحدكما الآخر : عندك أم عندي؟ ولا يلقي أي منكما بالا لما قد يحدث... تلك النتيجة المفاجئة التي تخمدها ليلة واحدة تصفها كاثرين بأنها منزل عاطفي انتقالي يتوسط حرية المعاشرة الجنسية العارضة>>[3]، أو كما يسميه زيغموند باومان بعالم النفايات، إنه عالم نشر الحميمي وانتهاك الخصوصي وذوبان الفرد في الكل، إذ تكتسب الحياة في

[1]- زيغموند باومان ، الحب السائل : عن هشاشة الروابط الإنسانية ، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1 . سنة 2016 م ص 18

[2]- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع، تر: مروة سامي، ص 57 -60.

[3]- زيغموند باومان،الحب السائل ، تر: حجاج أبو جبر ، ص 45.

هذا العالم الديستوبي قيمتها عندما يسيطر على الإنسان فعل الشهوة، والانهماك في متطلبات الجسد :<< إنه رفض لكل خلق قويم وفضيلة أصلية من أجل بلوغ ـ دعه وشأنه ـ >>[1]، إنه انحدار بالإنسان لمستوى البهائم، إنها صورة مرعبة للذة العابرة والجنس العابر :<< هزت لينينا رأسها وقالت متألمة، لسبب أو لآخر لم أجد لدي رغبة في العلاقات الجنسية المتعددة مؤخرا، وقد يمر المرء بحالة لا يجد فيها القبول لذلك الأمر. ألم تمري بهذا يا فاني ؟ أومأت فاني برأسها متفهمة ومتعاطفة، ووعظتها ناصحة، لكن على المرء أن يبذل جهده وأن يلعب اللعبة فالجميع ينتمي للجميع >>[2]، إن هذا الحوار لا يفتح فضاء للجنس داخل الرواية فحسب، وإنما يكشف عن القلق داخل المتعة ذاتها، إنه يبوح بركاكة اللعبة وانحطاطها، وعجز الإنسان أن يحكم وحده مداه، إنه لا يملك وحده، إنه الجميع !، فهل من مفهوم يعطى لكل هذا غير مفهوم العهر الجماعي !؟ :<< التفت المدير إلى طلابه قائلا ما سوف أخبركم به سيبدو عسير التصديق، ثم أطلعهم على الحقيقة المذهلة : فلمدة زمنية طويلة قبل زمن المبجل فورد بل ولعدة أجيال بعده كان ينظر إلى الألعاب الجنسية بين الأطفال كشيء شاذ، وانطلقت عاصفة من الضحك إثر حديثه، لكنه أكمل قائلا : ليس هذا وحسب ولكنها كانت تعتبر أمرا غير أخلاقي كذلك... فيما بعض الممارسات الذاتية والمثلية في الخفاء، لم يكن مسموحا بأي نشاط جنسي على الإطلاق. ظهرت ملامح الذهول وعدم التصديق على وجه طلابه: غير معقول !ألا يسمح للصبية المساكين بتسلية أنفسهم؟ لم يستطيعوا تصديق ذلك >>[3]، إن الناظر في أحوال الناس في العالم الجديد يرى انفصال الإنسان عن كل شيء له ارتباط بالأخلاق والحس الإنساني.

---

[1]- كولن ولسن، تر: علي مولا، اللامنتمي، ص 58.

[2] - ألدوس هكسلي تر: مروة سامي، عالم جديد شجاع ، ص 60 -61 .

[3]- ألدوس هكسلي عالم جديد شجاع تر :مروة سامي، ، ص 46 -47 .

فهذا العالم وإن كان على قدر من التطور المادي والتكنولوجي والصناعي، إلا أنه في قمة سقوطه نحو الانحطاط، حيث تلاشي القيم الأخلاقية والقضاء على الروح الإنسانية، ليرتفع صرح الديستوبيا، ف:<< الإنسان في حقيقته فرد لا سبيل لإبرائه من فرديته، فهو يأنف الحياة في قطيع ـ وغير قادر على ذلك ـ لكن يوجد نوع من الناس أقل إنسانية من غيرهم، يقبلون الوظيفة والنظام وسيادة الدولة فوق الأفراد >>[1]، الدولة التي صنعت الأفراد أنفسهم وسجنتهم في غرائزهم، وشغلتهم بها لتضمن استقرارها على حساب الإنسان الإنساني، ولأن جعل الإنسان حبيس ثقوبه، هو تعجيل بموته، بموت ضميره وموت إنسانيته واستقلاليته، الرواية تبوح لنا أنه :<< إذا أصبح الإنسان شيئا، فإنه سيموت على الرغم من أنه حي فيزيولوجيا، وإذا مات الإنسان على الرغم من أنه يحيا جسديا فإنه يقاد إلى السقوط، ويصبح خطيرا على نفسه وعلى الآخرين >>[2]، فالسقوط في قاع الرذائل هو خضوع لسطوة الأشياء، والابتعاد عن شرف الانتماء إلى النوع الإنساني، لأن الذات أصبحت سلعة، إنه الجسد البضاعة في العالم الواجهة، حيث تعرض الأهواء البشرية، بيد أن القيم الأخلاقية لم تعد سوى ملحقا إركيولوجيا في متاحف التراث، تعبر عن سذاجة الإنسان.

[1] علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، تر: محمد يوسف عدس، ص 245.

[2] إريك فروم، الإنسان المستلب وآفاق تحرره، تر: حميد لشهب، شركة ندا كوم للطباعة والنشر سنة 2003 م، ص 47.

4-إلغاء الإله واختفاء الإنسان الإنساني

في الفصلين الأخيرين من الرواية يحتدم صراع بن عالمين، بل بين إنسانين أحدهما يؤمن بالإنسان وربه حيث لاتزال تومض في داخله شعلة الروح، وآخر لا يرى أن هناك أي قيمة للإنسان خارج التفكير المادي، وقواعد العالم الجديد الذي لا يشكل فيه الإله سوى فراغا خلفه الغياب، وهو غياب غير ملحوظ !

وهنا يحضرني الحوار الذي دار بين العالم الفلكي دي لابلاس والإمبراطور نابليون بونابرت ف:<< في مطلع القرن 19، أنهى العالم الفلكي والرياضي المركيز دي لابلاس مؤلفه الموسوعي الضخم عن ميكانيك الفضاء، معتمدا على حساب نيوتن وقوانينه، فسار بفكرة الآلة الكونية الجبارة التي ابتدعها نيوتن إلى نهايتها القصوى>>[1]، حيث وضعت الثورة الفرنسية المسمار الأخير في نعش الحكم الكنسي ليرتفع سهم العلم وتفسيراته الجذابة، اكتشافات كبرى جعلت أوروبا تتخلص من انحطاط العصور الوسطى، كمعادلة نيوتن للحركة التي صاغت العالم من منظور ميكانيكي، وكتبت الكون في صورة رياضية. <<لقد عرض دي لابلاس مؤلفه على الإمبراطور نابليون بونابرت، قال له بونابرت : لقد قيل لي أنك وضعت في عملك هذا نظام الكون برمته، لكن من غير أن تشير من قريب أو بعيد إلى خالقه ؟فأجابه لابلاس: مولاي إن هذه الفرضية لا ضرورة لها في نظامي >>[2].

إنها الصورة نفسها التي قدمها العالم الجديد للإله، حيث يسأل جون البدائي عن حقيقة الإيمان بإله في هذا العالم الشجاع، وهو القادم من عالم لايزال طبيعيا بفاقته المادية والتكنولوجية،

[1]- فراس السواح ، دين الإنسان، منشورات دار علاء الدين، سورية، ط1، سنة 2002 م، ص .20

[2] - المرجع نفسه، ص 20.

وإدراكه لشقاء المرء إن كان بلا إله، فسؤال البدائي عن وجود إله أمر يتعلق بفطرة إنسانية لم يجر انتهاكها أو إفسادها، لقد كان ألدوس هكسلي بارعا في طرح مسألة الإيمان وعلاقتها بالحياة الإنسانية التي بدأ وميضها يخبو تحت سحر الحضارة المادية وفتنتها :<<فقد وجد الرجل الغربي في وضعه الحالي إنسانا بلا دين، وبلا وجدانية الإحساس بالمعنى، وقد أكد العلم هذا : إن الإنسان عارض في كون لا مغزى له >>[1]، فحدود هذا العالم إنتاج واستهلاك وطقوس عبادته متعة ولذة، وإلهه علم وتطور.

يسأل جون الملقب بالبدائي مصطفى موند : << إذن، أنت تعتقد أنه لا يوجد إله ؟

ـ بل يغلب على ظني أن هناك إلها، ولكنه يتجلى بطرق متنوعة لكل شخص.

ـ وكيف يتمظهر الآن ؟

- في شكل الغائب، كأنه لم يكن هناك منذ البداية... دعنا نقول... إن الرب لا يتناسب مع الماكينات والتطبيب العلمي والسعادة الكونية، وفي النهاية عليك أن تقوم بالاختيار بينهما، وقد اختارت حضارتنا الميكنة والطب والسعادة >>[2]، إنها فقط مظاهر الحياة المادية التي تفرز في النهاية كائنا مسلوب الشخصية، يخضع لآليات التطور وهذا يسفر عن :<< مدى ضحالة رؤية الإنسان لأبعاد الطبيعة البشرية، وإن كان قد قطع شوطا طويلا في الإمساك بأبعاد الأشياء الأخرى من حوله >>[3]، لقد ركب إنسان العالم الجديد موجة المادية الطاغية التي سدت كل منفذ يؤدي إلى طريق الروح ، رافعا معاول الهدم للمعالم الإنسانية التي تسير نحو هاويتها، لاهية بحياة

[1] - كولن ولسن، ما بعد اللامنتمي تر: يوسف شرور، ، ص 208

[2] - ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع تر :مروة سامي، ، ص 310 . 311

[3] - صلاح عثمان، الداروينية والإنسان، ص 190

الشهوة، شهوة إلى الاستهلاك، وشهوة إلى الجنس وشهوة للعلم والقوة، يقول جون البدائي: <<لو أنكم تركتم أنفسكم تفكرون في الرب فلن تسمحوا لها بالانحطاط في المتع المرذولة، بل كنتم ستجدون أسبابا للتحمل والصبر على المكاره ومواجهة الخطوب بشجاعة. يوضح مصطفى موند، ولكن الحضارة الصناعية لا تقوم لها قائمة إلا بالقضاء على إنكار الذات وبالإنغماس في الملذات إلى أقصى الدرجات المسموح بها دون التعرض لأخطار صحية أو اقتصادية، وإلا توقفت العجلات عن الدوران (...) فأنت لا تحصل على حضارة ممتدة دون وجود العديد من الرذائل الممتعة >>[1]، فالمسألة هنا تتعلق بتدمير كل معتقد إنساني ثابت أو محرم، وإعادة تصنيع وتركيب نموذج بشري جديد يتوافق والعالم الصناعي الذي أصبح بدوره نيابة عن الله والإنسان فيه أصالة عن نفسه، دون مرجعية ميتافيزيقية يبيح لنفسه كل شيء، باعتبار أن الحياة لا تمثل عنده سوى اقتناص لحظة وعيش لذة، وهكذا يجري تحويل البشر إلى قطعان، تعتاش على منتوج الصناعة، في اجترار دائم للمنتج الذي يوهم بتحقيق السعادة، وترمى معها الحياة الروحية للإنسان على قارعة الحياة، حيث يداس على القيم الإنسانية والمبادئ الخلقية، وحيث يختفي الإنسان الإنسان: <<وهذا ما يؤكده فوكو بعبارة صريحة حينما كتب قائلا بالحرف الواحد : ما عاد ممكنا التفكير في أيامنا هذه إلا في فراغ الإنسان المختفي، وليضيف من ثم أنه لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفي كل من لا يزال يريد أن يتكلم عن الإنسان وعن ملكوته، أو تحرره >>[2]، لقد تآكل الجانب الديني الذي كان الله يمنحه للإنسان ويمنح معه حرية المرء ومسئوليته ضمن شرائع، تنتهي جميعا إلى درب الخلاص حيث الأبدية والفردوس هناك في السماء، ف<<الإنسان معجزة المخلوقات... وهو أكثر

[1]- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع ، تر :مروة سامي، ص 314- 315.

[2]- روجيه جارودي، البنيوية فلسفة موت الانسان ،تر: جورج طرابيشي، ص 45.

من مجرد آليات جسدية (....)هو عقل وروح ووجدان، وذاته مستودع قوى وأسرار إلهية >>[1]، لقد ركز الكاتب هكسلي على طرح مسألة كيف عززت الآلة أزمة الإنسان، وذلك بعرض وقائع حساسة كان من شأنها التلاعب بالواقع الإنساني كظاهرة التشيؤ والخواء الروحي والثقافي الذي جعل من بشر العالم الجديد مسوخا، ومن دواخلهم فراغا. إنها صورة من حياة مجنونة فقدت كل مبرراتها المنطقية ولم تعد تحتفظ إلا بشراهتها للابتلاع.

ويعمق الكاتب هذا الشعور باللاعقلانية واللإنسانية عندما يصور لنا قادة العالم وهم يبتذلون ويسخرون من كل شيء يقود إلى الحقيقة الإنسانية، كالفن والشعر والكتب، ففي هذه الدولة العالمية يتم تكييف الأطفال على الخوف من الكتب بصعقهم كهربائيا عند لمس الكتاب، لذا ينشأ الناس وفي ذاكرتهم تلك الصعقة التي تسببها الكتب ومن ثم يتحول الأمر إلى كره الكتب، التي من شأنها صناعة الإنسان المثقف، الإنسان السؤول والباحث عن المعرفة والحقيقة :<<عاد مصطفى موند إلى مقعده قائلا : لدي الكثير، مجموعة كاملة من الكتب القديمة الفاحشة في الخزانة، نعم الرب في الخزانة، وفورد على رفوف المكتبة.

هنا سأله البدائي محنقا: ولكن إن كنت تعلم من هو الرب فلماذا لا تخبرهم؟ لماذا لا تعطيهم هذه الكتب عن الرب؟

لنفس السبب الذي لا نمنحهم **عطيل**، لأنها كتب قديمة، لأنها كتب عن الرب منذ مئات السنين لا عن الرب الآن

الرب لا يتغير

[1]- مصطفى محمود، الروح والجسد، دار المعارف . القاهرة . ط 7، سنة 1998م، ص7.

لكن البشر يفعلون >>[1].

لقد أدركت الدولة العالمية بشكل جيد أن الفن والشعر والكتب إنما هي حالة إنسانية أوجدها الإنسان ليعبر بها وفيها عن إنسانيته التي ارتقت عن عالم الحيوان وليفصح من خلالها عن حاجاته النفسية والفكرية التي هي قفزة فوق حواجز الغرائز وحدود الحواس، إنها الباعث الدائم لسؤال لا يهدأ، سؤال الإنسان، وسؤال حقيقة وجوده، وسؤال من أوجده، إنه سؤال التغيير، وسؤال الهوية، يقول هيجل :<< وعي الإنسان لذاته يتم اكتسابه بطريقتين : نظريا بوعيه لدخيلة نفسه، بيد أن الإنسان يدخل في الوقت نفسه في علاقات عملية مع العالم الخارجي، ومن خلال هذه العلاقات تنشأ الحاجة لأن يُبدل العالم وكذلك نفسه بمقدار ما تشكل هذه النفس جزءا من العالم، وتتلبس هذه الحاجة أشكالا مختلفة، حتى تصل إلى شكل من التعبير عنها في الأشياء، وهذا الشكل من التعبير هو أساس الفن>>[2]، وأساس التغيير بعد ذلك، فالإنسان يفوق الشهوات الغريزية، وإن له أهدافا أبعد من مجال جسده، وقد سعت الحكومة في صرامة إلى إخفات صوت حيرة السؤال، بل إلى تجريمه. إنها الأسئلة التي سعت للإجابة عنها كل أشكال الفلسفة والفنون والأديان، فدائما ما شُغل الإنسان المفطور على السؤال بأصل العالم، وحقيقة وجود الله والروح، والجنة والجحيم، إنها الأسئلة التي شغلت البشرية منذ غابر الأزمان ولا تزال.

يقول جون البدائي :<< ولكني لا أريد الراحة، أنا أريد الرب، أريد الشعر، أريد خطرا حقيقيا، أريد الحرية، أريد الصلاح، أريد الذنب >>[3]، إنه يريد الإنسان، الإنسان بكل تناقضاته،

---

[1]- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع ،تر: مروة سامي ، ص 302.

[2]- إحسان سركيس، الآداب القديمة وعلاقتها بتطور المجتمعات، دار الطليعة بيروت، لبنان، ط1، سنة 1988م، ص 15.

[3]- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع ، تر :مروة سامي، ص 319.

إنسان يعيش رغباته ويتجاوزها ليكتشف ذاته ويعلو بها، ليحطم قوقعة الغرائز، وينعتق من محبس الفراغ الشره للابتلاع، وهذا ما يخلق إنسانا فريدا من نوعه، فكل إنسان هو نسيج وحده، وإن اشترك مع بني نوعه في طبيعة جنسه، إنه الإنسان الفاعل في الحياة عن طريق الصواب وعن طريق ارتكاب الخطأ، إن هذا الاختلاف هو أساس بناء الحضارة، إذ لا يمكن أن تُطبع الطبائع الإنسانية في قالب واحد:<< لن تصبح البشرية إطلاقا قطيعا واحدا، لها راع واحد، ولن تتخذ الحضارة شكلا واحدا مطردا لكل البشرية، ولن يسود النبل ويشمل الجميع، فلن تستطيع فضائلنا وسعادتنا الازدهار إلا وسط الصراع الفعال مع الخطأ، ولوأمكن إزالة كل حجر عثرة، فسيفقد البشر بشريتهم>>[1].

إن الحقيقة التي يريد هكسلي إيصالها إلى القارئ، أن إقامة مجتمع فردوسي للإنسان دون الانتباه لوجوده الجدلي، كونه حقيقة جسدية وروحية لا تُخرج لنا سوى مجتمعا مريضا أعرجا، فالمجتمع الاستهلاكي الذي يعمل على اشباع رغبات الناس، مسقطا حاجاتهم الفكرية والروحية، إنما في قمة علوه يؤسس لسقوطه.

فإذا كان العلم والتكنولوجيا ضرورة حتمية، وبهما استطاع الإنسان تخطي الكثير من مصاعب الطبيعة، إلا أنهما يتحولان إلى آلات تدمير حينما لا يكون هناك صيغة انسانية تتسيدهما، فحضارة تلغي تاريخ الإنسان وتراثه الفكري وإيمانه، إنما هي حضارة مريضة تحمل في أحشائها بذور فنائها، وهذا ما يؤكده جون البدائي عندما يسأله برنارد :<< هل أكلت شيئا أمرضك؟ فأومأ البدائي موافقا : لقد أكلت الحضارة >>[2]، اقتنع البدائي أن العلم لا يملك سلطة مطلقة تكفينا لفهم الحياة، ولا يمكن أن يفسر لنا وحده الحقائق الوجودية ومعاني الجمال ومركزيات الأخلاق،

[1]- صلاح عثمان، الداروينية و الإنسان، ص 188.

[2]-ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع، تر:مروة سامي، ص 321.

فهذه الحضارة التي وصل إليها العالم الجديد، وهذا العلم التجريبي الفائق التطور أصبح يُخضع كل شيء لسلطانه، بما في ذلك إنسانية الإنسان.

خاتمة

بما أن الرواية تعد أكثر الأجناس الأدبية التصاقا بالواقع ومن ثم حياة الإنسان التي عمرها بالمكابدة وأدركها بالمعاناة في مشواره المليء بالعثرات والسقطات، فهي تنقل هذا الواقع على كف السرد لتعيد تشكيله فنيا وتُجاوزَه تخييليا، إنها لون أدبي يعلو فوق الأزمنة، يقرأ ماضيها، يرصد واقعها، يعطي صورة للآتي منها.

ووفقا لذلك يمكن القول: إن الأدب الديستوبي أو الرواية الديستوبية هي نتاج تراكم الماضي المثقل بالأوجاع، والحاضر المليء بالانهزامات والخيبات، إنها قراءة لمستقبل نازف، حيث العالم الجذاب كذاب، ففي العالم الديستوبي تلمع المنتجات والآلات، وتبرق معها أنياب الإنسان ومخالبه، حيث الإنسانية سيطرت عليها ميكانيكية الصناعة، وفُرض عليها بقوة المال والتكنولوجيا تاريخا كاذبا ومستقبلا مفرغا من معناه.

أفصحت لنا الرواية الديستوبية عن صوت أنين الضمير المذبوح بشفرة الشهوة التي اخترقت القيم والمبادئ، وأكلت الإيمان من جذوره.

وهي تعد رؤية استشرافية لمستقبل الإنسان، إنها رؤية تكثفت وتكاتفت في صياغتها معطيات سياسية واقتصادية وأخرى عالمية وتكنولوجية... تفاعلت جميعا في تصوير المدينة الفاسدة التي عرت عن الضمائر المفلسفة والأرواح المستسلمة للشر غير عابئة بإنسانية الإنسان.

وأخيرا وليس آخرا يمكن القول إن أصداء فلسفة موت الإنسان تتردد كثيرا داخل هذا الحقل الروائي، حيث تقدم لنا رؤية واضحة لصورة العالم الجديد الذي ينادي به صناعه، إذ لا قيمة للتاريخ أو المبادئ والقيم، بل حتى الإنسان ذاته، وذلك كله ببركة ما أصبح العلم يوفره من

إمكانيات، كما أصبح الصراع الدائر بين الخير والشر صراع مال وتفوق تكنولوجي، مفرغ من بعده الديني، فالخير موجود في شريعة السوق وسننه، محصور في قيمه، أما الشر فهو كل ما خالف ذلك من ثقافات ورؤى وفلسفات تكافح لأجل هويتها.

إن ما ينادي به العالم الديستوبي هو الجميع الراضخ، إنه القطيع، إن أدب الدستوبيا أو أدب المدينة الفاسدة، هو صيحة صحوة تدعو الإنسان أن يستفيق، فرواية ألدوس هكسلي هذه تناولت تنامي نزعة العلم الداعية إلى حصر الوجود كله داخل إطار التجربة، فالعلم ممارسة تجريبية لا تضع إجابات حول ألغاز الغيب وأسئلة المعنى والمصير، وبهذا فإن رواية عالم جديد شجاع ترصد لنا التحول الأهم في العصر الحديث، فما أبدعه هكسلي في رائعته هذه لم يكن محض موقف شخصي اتجاه العلم وتداعياته، وإنما كان رمزا عاما لإنسان الحداثة الذي قطع صلته بالمقدس وأصبح عاريا من الإيمان والثوابت، إذ لم تجد البشرية أجوبتها، ولم يبصِّرها العلم بالحقائق الغيبية ولا بقيمة القيم بل توهمت أن المستقبل مع العلم الذي وحده يمكنه تأسيس فردوس أرضي، وأن الناس سوف يتخلصون من آلامهم الجسدية والنفسية كلما تجرعوا مزيدا من المتع.

تفصح الرواية عن إنسان ممزق، لا يرى في الحياة غاية أو مغزى مفهوما، إنه إنسان اللذة السريعة والحياة لديه وجدت للمتعة.

فهرست المصادر والمراجع

أولا: العربية

1- القران الكريم

2-أحمد خيري العمري الفردوس المستعار الفردوس المستعاد، دار الفكر، دمشق، ط3، 2011م.

3-أحمد مطر، المجموعة الشعرية، دار الحرية، بيروت، لبنان،ط1،2011م

4-إحسان سركيس، الآداب القديمة وعلاقاتها بتطور المجتمعات ، دار الطليعة ، بيروت، لبنان، ط1، 1988م.

5- صلاح عثمان، الداروينية والإنسان، منشأة المعارف بالإسكندرية ،دط،2001م.

6- طه باقر ، ملحمة جلجامش ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الرغاية الجزائر ، دط ، 1995 م.

7- عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت ، لبنان، ط1 ،1992م.

8- عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الأول، دار الشروق القاهرة، ط1، 2002 م.

9- عبد الوهاب المسيري العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ،المجلد الثاني ، دار الشروق القاهرة ، ط1، 2002 م.

10- عبد الوهاب المسيري، رحابة الإنسانية، دار الشروق القاهرة ، ط1، 2002م.

11- عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، ط1 ، 2003 م.

12- فراس السواح، دين الإنسان، منشورات دار علاء الدين ، سورية، ط4، 2002 م.

13- محمد الشيخ ، فلسفة الحداثة في فكر المثقفين الهيغليين –ألكسندر كوجيف وإريك فايل -، بيروت ،ط1 2008 م.

14- ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 2012م .

15- ممدوح عدوان، دفاعا عن الجنون، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، سورية، ط2، 2012م.

16- مصطفى محمود، الروح والجسد، دار المعارف، القاهرة، ط7، 1998م.

17-يحي البشناوي ، أزمة الإنسان في الادب المعاصر، دار الكندي للنشر، عمان، ط1، 2014م.

ثانيا: المترجمة

18- ألدوس هكسلي، عالم جديد شجاع ،ترجمة: مروة سامي، عالم الأدب، بيروت، لبنان ،ط1،2016م.

19-إدغار موران، النهج إنسانية البشرية-الهوية البشرية-، ترجمة :هناء صبحي ، هيئة ابوظبي للثقافة والتراث،الإمارات،ط1، 2009م.

20-إريك فروم، كينونة الإنسان، ترجمة: محمد حبيب ،دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية ، ط1،2013م.

21-إريك فروم، ثورة الأمل: نحو تكنولوجيا مؤنسنة ،ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة ،ط1، 2010م.

22-إريك فروم ،الإنسان المستلب وآفاق تحرره، ترجمة حميد لشهب ، شركة ندا كوم للطباعة والنشر، دط، 2003 م.

23-توماس مور، يوتوبيا، ترجمة: إنجيل بطرس سمعان ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1974م.

24-جورج أورويل، رواية 1984،ترجمة:الحارث النبهان، دار التنوير، بيروت، لبنان،ط1، 2014م.

25-دونالد ستورمبرج ، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث-1601-1977، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، مصر، ط3، 1994م.

26-ديفيد سيد ، الخيال العلمي ،ترجمة: نيفين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، جمهورية مصر العربية،ط1، 2016م.

27-روجيه غارودي، نظرات حول الانسان ، ترجمة: يحي هويدي، مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،1983م.

28-روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان ،ترجمة: جورج طرابيشي ، دار الطليعة، بيروت، ط1 ،2007م.

29-روجيه غارودي، الولايات المتحدة طليعة الانحطاط ،ترجمة: مروان حموي، دار الكتاب ، دمشق، ط1، 1998م.

30-روجيه غارودي ، كيف صنعنا القرن 20،ترجمة:ليلى حافظ، دار الشروق، القاهرة، ط1،2000م.

31- روجيه غارودي، النظرية المادية في المعرفة، ترجمة: إبراهيم قريط، دار دمشق، دون طبعة، دون تاريخ.

32-راي براد بوري، فهرنهايت 541، ترجمة: سعيد العظم، دار الساقي بيروت،لبنان،ط1، 2014م

33-زيغمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الاجتماعية، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،بيروت،ط1،2016م.

34-زيغمونت باومان، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2016م.

35-زيغمونت باومان وليونيداس دونسكيس، الشر السائل، ترجمة: حجاج ابوجبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1،2018م.

36-زيغمونت باومان، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة: بثينة إبراهيم وسعد البازعي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة،ط1، 2016م.

37-علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف، مؤسسة العلم الحديث، بيروت،ط1، 1994م.

38-فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، بغداد، ط1، 2007م.

39-فريدريك نيتشه، في جينيالوجيا الأخلاق، ترجمة: فتحي المسكين، منشورات دار سيناتورا، المركز الوطني للترجمة ، تونس، دون طبعة،2010 م.

40- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر ،ترجمة: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للنشر، القاهرة ، ط1، 1993م.

41- كولن ولسون، اللامنتمي، ترجمة: عي مولا ،دار الآداب، بيروت ،ط5، 2004.

42 - كولن ولسون ،وما بعد اللامنتمي، ترجمة: يوسف شرورو، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ط5 ،1981م.

43- هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة : جورج طرابيشي ،منشورات الآداب، بيروت، ط3 ، 1968م.

44- يورغن هابرماس، العلم والتقنية كإيديولوجيا ،ترجمة: حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط1 ،2003م.

فهرست الموضوعات

مقدمة .....أ-ج

مدخل: أدب الديستوبيا المصطلح والمفهوم والنشأة 5

الفصل الأول : الأسس الفكرية والفلسفية للديستوبيا 11

1-من موت الإله إلى اختفاء الإنسان 17

2-إنسان السيولة وثقافة المتعة في زمن اللحظة 22

3-العبثية والعدمية والاغتراب 27

4-صراع الغابة قانون للحياة 31

الفصل الثاني :تجليات الديستوبيا في رواية عالم جديد شجاع 37

1-وصف المدونة 38

2-تأليه العلم ومكننة الإنسان 42

3-أخلقة المتعة وحرية الجنس 49

4-إلغاء الإله واختفاء الانسان الانساني 55

خاتمة 63

فهرست المصادر والمراجع 65

فهرست الموضوعات 69